متتالية
قصصية

تعاريج

كبير درويش

الطبعة الأولى
الناشر : مؤسسة مصر للقراءة والمعرفة
الكتاب : تعاريج
المؤلف : عبير درويش
تصنيف الكتاب : متتالية قصصية
تصميم الغلاف : أحمد الملوانى
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ١٣١٠٦ / ٢٠١٥
الترقيم الدولي : 978 - 977 - 776 - 072 - 0

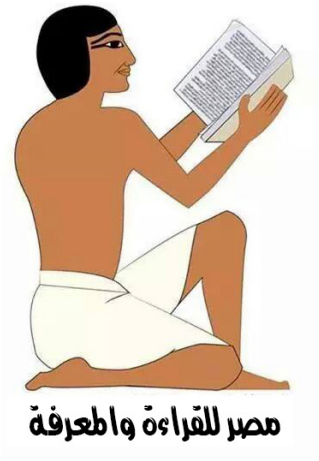

٠١٢٢٢٧٤٦٣٧٧

الطباعة والتجهيزات الفنية

مطبعة بسطرون

الإهداء

لم أجد غضاضة فى البوح، رغم استهجان الأحزان..

أجدها تمنحنا الصلابة، وتهبنا ترنيمة شكرٍ داخلية..

يسمعها شركاء التجربة، وبقية الجوقة من المترنمين فى صمت....

إلى من يقرأ....

هى لك...

امرأة التعاريج

تطرق رأسي تلك الجملة من ذكرى حصاد مقولات "منعدم الخواص"، كان الدرس عن الماء، منعدم اللون، والرائحة، والطعم، أستشعر حالي الآن وأكاد أجزم بخريرٍ صادر عن أوصالي، ألتقم طعامي لإتيان فعل الالتهام دون استساغة، أو اشتهاء، أسكب في جوفي دون روية، وبغير ارتواء، أغلق أهدابي قسراً دون نعاس، وأتأوه حين تلاطفني في كامل ادعاء.

أتفحص جسدي الشفاف، وأتابع التواءات أمعائي وتشابك رسغي بالمرآة، وفراغٌ أسفل تجويف البطن يفتقد بقاياه المنتزعة أثر شقٍ عرضي، أنا لا أعلم شيئاً عن تلك المرأة المكتنزة التي تطالعني غرة بالمرآة، وتتصدر إطارات الحائط، أو تلك البشرة باللون الخمرى المكتسبة من فرط بدانة عرضية، لا أرى سوى تلك الطفلة السمراء، قصيرة القامة، نحيلة القوام، ذات الرأس المتعرج والجبهة البارزة، والشعر المستعصي على الجمع.

لكنني ما زلت أفضل الشتاء عن بقية أشهر العام، وأفضل وقع الأمطار على شرفاتي، وأكون في قمة عليائي حين تغيب الشمس عن المشهد، ويغطي سديم الكون الأزرق كل الغيمات، وأتلمس الدفء أسفل زندك، رغم كونك ترتجف دوني، وأدفن وجهي في صدرك الأعزل، وأستنشق من رائحة جلدك أفضل ما أمكن أن أتنفس بطلاقة وأريحية، ولا أريد من مضاجعتك سوى البدايات.

فأنا امرأة التعاريج الكونية، أكسر حافة قلمي كي لا يسطركم تعاريج الألم على روحي اللاهثة في متاهتي الخاصة، لم أتمرس على تلك الطرق الملساء، واعتدت مهام الشق عن الذات، وزوايا وانحرافات التعريجات !

عبير

١- بغادرة

كان الجدار ضخماً بما يكفي لحجب الشمس، والثقب المستدير أسفله صغيراً بحجم استدارة الشمس البعيدة القزحية المتوهجة، كبيراً بما هو كافٍ ليسمح بمرور أجسادنا النحيلة عبره؛ نفاذاً منه وإليه، كنا نرتحل ونعد العدة، ونحتاط، ونرسل من يستطلع في مهمة استكشافية؛ كمن يقترف خطيئة عبورٍ غير شرعية؛ لنتحاشى السير مسافة أطول بكثير مما نقطعه عبر منفذنا السري، إذ كان من المفترض أن نسير بمحاذاة السور المستحدث علينا من قبل هيئة البترول التي حطت رحالها، وقامت بشراء الأكواخ، والمنازل الطينية للغجر والأعراب القاطنين بها، لم تزل الصورة في مخيلتي للآن، عويل نساء الأعراب وعديدهن وهن مرتحلات عن ديارهن يحملن الحصر الملفوفة تحت إبطهن، ويجمعن ملابسهن في آنيتهن النحاسية فوق الرؤوس، ويطربن بعويلهن في ارتجال: "ويلي ويل دني يووما"، أي ما ذنبي يا أمي وماذا اقترفت؟ ما زالت رائحة الدَّخن المتصاعد من أجمة أكواخهم تُستدعى إلى حواسي كلما أستحضر ذكرهم، لم يشعل أي منهم ناراً، يدعون أنها لهيب فراقهم لأرضهم المكتوية ظلماً وبهتاناً.

***

كنت بالصف الأول الابتدائي، وأخي يسبقني بعامٍ دراسي ، كان الصبية يقودون المبادرة بالاختراق، ولأني البنت الوحيدة، والصغيرة سناً وحجماً؛ كنت أتبع الخطى خلفهم، في ذاك اليوم تحديداً أغلقت المدرسة أبوابها خشية تصاعد الأحداث، ولجوء الأعراب، ومستوطني

الأكواخ اللبنية إلى المبنى المدرسي، وأخبرت التلاميذ، زيادة في الحيطة؛ أن المبنى "آيل للسقوط" وقابل للهدم، ومنحتنا إجازة "أربعة أيام دراسية"، عدنا أدراجنا على نفس الدرب، وأنا في الخلف أبذل جهداً جهيداً للحاق بخطاهم، ألهث وأنظر لآثار أقدامهم التي طبعت على الرمل الندي بأحذيتهم البلاستيكة الموحدة البيضاء "السيلبس"، وفجأة انحرفت آثارهم عن الدرب فتجمدت لا أدري شيئاً، حتى جاءني أخي وأمرني بالعودة وحدي، لأن الصبية انتووا إقامة "ماتش" كرة قدم، ولن يعاودوا إلى المنازل الآن، وعليه فإن الأجدى بالبنات أن تعود.

على مضضٍ استجبت، واستجمعت بقاياي لأعود وحدي مقتفية آثار الرحلة الصباحية، وأنفذ عبر الثقب الجداري، ومنه إلى الشارع بمحاذاة الجدار القديم المعدني الذي كان يؤطر "مصنع الأسمنت"، ومنه إلى المنازل، حتى منزلنا.

أمي كانت، لحظي العثر، متواجدة بالمنزل لأن جدي "يوسف" أباها في زيارة لنا يتفقد أحوالنا، لأن أبي مفقودٍ في الحرب ولم يعد مع العائدين من الجنود، وما أن وقعت أمي بنظرها عليَّ حتى التبسها هاجس بأني فررت من المدرسة، وعدت بدون أخي الملتزم المواظب على دروسه، أغلظت لها الأيمان جميعاً وقتها، بدءاً من رحمة أموات العائلة جميعاً، واستعطافاً وتيمناً بعودة الغائب المفقود، إلا أنها أصرت أني منفلتة وكاذبة، ولديّ من الخصال ما يجعل مني كارهة للدراسة، وأنه وجب عليها معاقبتي عقاباً لا يزول أثره ولا يفنى، كي لا أعاود مثل تلك الفعلة الشنعاء.

تفتق ذهن أمي، وأنا أحتمي بصدر جدي وألوذ به من لوثتها؛ بأن تلهب شوكة معدنية من أدوات المطبخ حتى تتوهج، وتخيرني أين أُحرق وأتلقى عقابي، ووشمي بالفعلة الشائنة الكبرى،

ظللت مختبئة بصدر جدي، وأواري وجهي به، وأبكي، فاختارت هي أن تنزع عني بنطالي وتسفعني عدة مرات على مؤخرتي، وظلت تعيد الكرة حتى توقف المعدن عن الأزيز على جلدي.

في الظهيرة عاد أخي بكرته المحشوة بالإسفنج، والمغطاة بشرابه، روى لها روايتي الأولى، وتناول طعامه، واصطحب كرته وعاود اللعب أمام المنزل!

لا أتذكر ملامح بقية يومي هذا، غير أني فقدت القدرة على النطق بعض الوقت، وظللت طيلة أسابيع لا أضطجع سوى على وجهي، ولا أتذكر سوى رائحة الدَّخن، وتوسلاتي وقسمي اللذين اختلطا بنحيبي، ورائحة صدر جدي الأعزل، وأخي وهو يتبختر ويقذف كرته أمامه، لا أتذكر سوى عدودة الأعراب كلما امتثلت للمرآة؛ فأتذكر تلك الطفلة التي غادرت آنذاك.

٢- فيلم هندي

الوقت فجر، الصبح يفرك عينيه من نعاس ليلته، أنوار الشوارع خافتة، والدبيب يُسمع واضحاً، نباح الكلاب الضالة في الأزقة، وصياح الديكة أعلى أسطح المنازل، مصابيح المنزل كلها مضاءة، أتوسط سرير أمي، وأتوسد ذراعي الأيسر، أطوق بيميناي الكائن الصغير الذي جلبته أمي للحياة بناءً على إلحاحي في الحصول على أختٍ لي، فأخي الذي يكبرني بعامين لا يرغب فى إشراكي فى لهوه مع أقرانه لأنهم ذكور، فأنا بنت، ولا يحق لي لعب" البلي" الزجاجي، وركل الكرة، ومن الأجدى أن ألهو بعروسة من حشو فضلات الأقمشة مع الفتيات مثلي.

***

كانت بمثابة هدية من القدير لي، تملؤني الغبطة حين أشارك برعايتها، أطعمها، أو أهدهدها، وأنزع عنها ملابسها المتسخة في انتظار أن تكبر وتشاركني اللهو، لم تبدِ أمي استياءها من دوري البديل لها، حتى أبي الذي كان يتفرس في وجهها، ويحرك عضلات وجهه لينال ابتسامة الفم الخالي من الأسنان، ثم يعود إلى وجومه واسترسال ذكراه الأليمة، بعد عودته من حرب الاستنزاف المريرة التي فُقدَ فيها لأكثر من عامين، ولم تجد أمي بُدًّا من دفعه إلى السفر للبحث عن الرزق، بعد فصله من مصنع الأسمنت، والنزوح إلى خليج النفط والمال، نزح أبي إلى حرب الاغتراب، وهو ما زال مثخناً بجروحٍ نفسية أشد وطأة من حر الكويت الذي لفظه، بعد شهرين؛ فأصيب بحمى نادرة على أثرها لُج في غيبوبة، وفقد للمرة الثانية، بمشفى

الكويت العام، دون هوية، ودون مال، دون صحبة تستدل عليه.

تقطعت السبل بنا طيلة عامٍ وأكثر، طرقت أمي فيه كافة أنواع الإعاشة، ولم يبق لها سوى طريق واحد امتهنته من قبل؛ وهو "ليبيا"، والسفر عبر حدوده إلى المدن التجارية به مثل "بنغازى " و"طرابلس" للعمل بالتجارة، واستيراد البضائع، من أقمشة وملابس حريرية، وغيرها، والتي كانت رائجة وقتها.

لجأت بأخي إلى عهدة جدتي التي كانت تحبه جداً، ورفضت رفضاً باتاً وجودي أو وجود الصغيرة لأننا "إناث"، وهي تبغضهن بشدة.

فتاة صغيرة في الثامنة يعهد إليها برعاية رضيعة، لم تتعد الأشهر القليلة، في منزلٍ دون علم أحد من الجيرة القلة، أو الأهل الأكثر عدداً، منذ ما يقرب من ليلتين، وثلاث، تزيد أو تقل، تقطعها الأم بوصولها محملة بالبضائع لليلة ونهارين، ثم المعاودة، وعلى هذا المنوال ما يقرب من العام.

ما أسرده ليس بالمتخيل، ولا كما يصفون "فيلم هندي"؛ بل الفيلم الهندي كان السبب وراء سبر أغوار الطفلة التي أمست أماً.

في تلك الليلة، وأنا أتوسد سرير أمي فجراً، وأتقرفص حول الصغيرة، دخلت علينا أمي باكية بعينين داميتين، وتكاد لا تعي، تحتضنني وتقبّل قدم الصغيرة وجبيني ووجنتها ويديّ وشعرها، وهي ملتاعة، وتردد في تكرار:

- مش هامشي تاني وأسيبكم، مش هاسيبكم تاني أبداً.

لم يوقفها سوى اعتراضي "بأنها أيقظتها بعد تعبي في هدهدتها حتى نامت..فضحكت .

نهارًا روت لنا، ثلاثتنا، في تثاقل، ما أثر فيها فجعلها تتخذ قراراً نهائياً بعدم السفر، ألا وهو "الفيلم الهندي" الذي شاهدته، والذي يحكي بأن طفلاً رضيعاً لم يتعد العامين، ويحبو؛ ماتت أمه بوباءٍ ما في القرية، أو مغدورة على أيدي قاتليها، وهو يبحث عنها ويبكي في باحة القصر الذي كانت تقطنه، وصنع أبوه لها تمثالاً بالحجم الطبيعي وهي تتربع ربوة حجرية، ويسدل عليه الساري الهندي، ويتعثر به الطفل الباكي الذي يحبو ليستقيم ويتموضع، ويلتقم ثدي الأم الحجري !

كانت تسرد أحداث الفيلم باقتضاب، وتواري وجهها، وتهم بجمع الدمى البلاستيكية للصغيرة، وتشرد في سرد تفاصيل لأجزاء أخرى من القصة، وتقطع المكان ذهاباً وإياباً حتي شعرت أنها أسهبت في الحكي غير المبرر، وأن لا صوت لنا معقب على بقية الأحداث، وأننا انصرفنا للهو أو ما شابه؛ فصمتت قليلاً، حين استدارت لم تجد سواي قابعةً أنصت وحدي في انتظار ما أود سماعه فيما يخص أطفالاً آخرين في القصة.!

٣- ابن حب

لا أعلم تحديداً، الزمن كان مختلفاً، أم الأشخاص اعتراهم التغيير مع الزمن.

حينها كنت في التاسعة، عندما قررت أمي، تحت ضغط الاحتياج، اقتصاص حجرتين وعرضهما للإيجار، آنذاك كان المتعارف عليه نقد مبلغ مقدم من الإيجاريخُصم نصفه، أوكله، حسب الاتفاق "خلو رجل"، عندما طرقت منزلنا شابة عشرينية رائقة الملامح، تصطحب رجلاً جنوبياً بلكنة صعبة التفسير، وأعربا عن رغبتهما في استئجار الوحدة وتعذرا بضيق ذات اليد؛ لأنهما متزوجان حديثاً ويقطنان بشقة "مفروشة" التهمت مواردهما، وأنها على استعداد تام لتعويض الفارق المادي بالتدريس للأبناء طوال دراستهم، قصرت أو طالت.

لم يلق الاقتراح عند أمي استحسانا بادىء الأمر، واستهجنت وبشدة أمرًا واحدًا..

- مفروش، يا لهوي وليه كده؟

أُسقطت الشابة في خجلها، وتلوى فم الجنوبي ممتعضاً، وأخذ "يرطن" بلغط غيرواضح، وعيناه مصوبتان نحو زوجته ويتحاشى النظر إلى أمي، استجمعت الشابة شجاعتها وابتسمت:

- جواز على حب.

أطرقت أمي قليلاً، ثم أومأت لها بالقبول، فنهضت وعانقتها، تلك

هي أمي التي لم أعِ لها تبريراً فيما تجنح، حين سألتها: لمَ؟

أخبرتني أنها راقت لها، ونحتاج معاونتها لنا بالدراسة للتعويض عما فاتنا، وكانت مؤاخذتها الوحيدة أن زوجها "جلف" وهي "جدعة".

"أبله عفاف" اخترقت قلوبنا جميعاً بنقاوة سريرتها وعينيها المشعتين حبًّا، كنت أعيد الكرة بالسنة الثانية الابتدائي، ولم أكن أعِ ما يدرسون، فأصرت على ملازمتي لها طيلة بقائها بالمنزل، تعيد على مسامعي أبجدية الحروف، وتختبرني أثناء الطعام لتحصل على حاصل ضرب 6 فى 9، وتدخلني في تحدٍ للهجاء وتحفزني بما أفضّل من حلوى، ونجوم لاصقة براقة، لكنني كنت أحبذ عناقها، وأتحسس بطنها المتكور على نبتة الحب التي تبرعمت أمامي، هي من أرست لديّ عقيدة (العناق)، وعقيدة أخرى كان لها وقعها عليّ فيما بعد.

عدت من المدرسة فوجدتها لدينا مع بِكر المنزل "شريف"، لن أجد في وصفه سوى الجمال والمحبة، هو فائق الجمال، والجميع محب له، همست أمي بأنه لم يبكِ، وأنه ابتسم حتى ظهرت نواجذه، وأن البيت ظل أربعين يومًا معبقًا بالبخور دون مرجل أو مدخنة، وأنها تهيبت هذا الوجه الذي أطل عليها من فرط حلاوة ملمحه، كانت "أبلة عفاف" تضحك وتمنحه لأمي وهي تتربع الأريكة قائلة:

- خديه ما هو ابنك كمان.

كنا نتناوب على حمله وإطعامه، وتحميمه، ونحتفي ببروز أول سن له، ونحفزه على الحبو والمشي، ونتابع بزوغ قواطعه، وننهره على التبول في ملابسه، ونصطحبه "أوبح" في قضاء الحوائج، ونرتب تلعثمه بنطق أسامينا، ويختبىء خلف أقدامنا محتميًا بنا من بطش أبيه الراطن، ونحمله على أفخاذنا أثناء الدرس، ويهتز معنا في ترتيل

الآيات وحفظ الأناشيد المقررة التي كان يلفظ آخر حرفين بها تبعاً للتكرار، تخطى العام الرابع وتخطيت أنا، حسبما خططت "أبلة عفاف"، اجتياز العامين المزدوجين، وهو ما كان معمولاً به آنذاك (سنتين في سنة) أو (النط)، وهو دمج الصف الخامس مع السادس لتعويض ما فوّت في السابق، نجحت وبتفوق فاق توقعات الجميع، والتحقت بمدرسة المكس الإعدادية المشتركة، ولم أنقطع يوماً عن التبتل بوجه "شريف" ولا متابعة معلمتي الفضلى في الحياة، وكنت قد بدأت الدخول في طور النضج وظهور برعمين صغيرين في صدري، ولم أكتشف مدى قدرتهما على إيلامي إلا بعد أن باغتني ذلك الجنوبي الجلف ذات مرة، وأنا أمرق للدخول إلى منزله لرؤيتهما، صُعقت حينها ولم أقوَ على التفوه ولو بـ"لا" اعتراضية، وجَبنت عن سرد ما حدث لها، وخشيت من إخبار أمي كيلا تلومني أنا، أو تطرده من المنزل ومعه "أبلة عفاف" و"شريف"، وما كان مني إلا أن قلّصت من زياراتي إلى أن ندرت تمامًا، وحين وصلت إلى الصف الثالث الإعدادى تنامى إلى مسامعي من أمي أن "شريف" مريض للغاية، وأن الحمى التي كانت تعاوده كثيراً، وهو صغير، عادت بشراسة، ولم تفلح معه حمامات الثلج ولا احتجازه بمشفى الحميات، وأنه لم يحضر من عامه الأول الدراسي سوى بضعة أيام، وتحير الأطباء في مرضه النادر آنذاك، والذي أطلق عليه "سرطان النخاع الشوكي".

- هو ابن موت !

ظلت أمي ترددها وتستدل عليها بوقائع ولادته، وجماله الملائكي، واستدعت واقعة البخور وغيرها من الشواهد الأخرى العالقة بذهنها، والتي تدعم نظريتها الآنية بأنه لا محال من تبني الموت له.

انتابت أمي حالة من الذعر والتشاؤم، وهي تشاهد من شاركنا

جميعاً يذوى شيئاً فشيئاً، ويضمر حجماً ووجهاً، وروحاً بريئة لم تقوَ حتى على التلويح لنا وهويغادرعلى كَتف أمه إلى رحلة العلاج، بل اكتفى أن حرك أهدابه التي أغلقت بدمعة على وجهينا، ظل هذا المشهد عالقًا بذهني كسوط يسقط على روحي، يجلدني؛ كلما تذكرت انزوائي وبُعدي عنهما، وجدتها تردد ما كانت تنفيه سابقاً؛ بأن الحي موبوء من جراء مصنع الأسمنت وسحب الدخان الكثيفة التى تمتزج مع الهواء، وغبار الأسمنت الذي يغطي الأسطح والشرفات ونتنفسه ليل نهار.

كان لدى كل فرد منا جزء يفر من المواجهة، سبب خبئ طي النفوس.

أمى كانت تنفر من الموت، والمرض .

حبذت أنا قرار الترحال، للبدء من جديد دون شائبة حول سمعتها، وأملاً في جمع شتاتها مع أبي بعيداً.

أبي لم يكن يعارض ما تختار، وإن كان يفضل الرحيل بعيداً عن مخزون هزائمه في مصنع الأسمنت، وفي الحي، في عيون أمي.

لم نلحق بركب الفرار، غلبنا الموت في صرخات "أبله عفاف"، ونحيب الزوج الجنوبي الذي هال على رأسه التراب وهم ينتزعونه من ذراعيه، وندائها على أمي تخبرها أنه مات حزناً على فراقها له، وتعتصرني داخل صدرها وهي تخبرني أن رائحته ما زالت بي، علمت يومها عقيدتها الأخرى التي لقنتها لي دون دراية مني، وهي "المحبة" غير المشروطة.

خرجنا من "وادي القمر" وسحب الدخان كانت قد اختلطت بسحب الغيم الشتوية الكثيفة، أمطرت مطرها الأسود الذي تساقط على رؤوسنا جميعاً، نقاطه السوداء ما زالت نُدوبًا غائرة في وجيب قلوبنا، عن ابن حب اغتاله الموت .

٤ - (الأبيض الغائم)

شمس أغسطس كانت ثقيلة ملهبة، تُحكم قبضتها فوق رؤوسنا النحيلة بحصارٍ من العرق اللزج ولهاث الأنفاس المتلاحق، ودوي نداءٍ ملح يثخن آلام عظامنا قبل أدمغتنا المنصهرة.

"أكتر، بسرعة، أقوى".

لم تكن قانعة بمحاولاتنا الجهيدة بأن نحتفظ برباطة جأشنا في ذاك القيظ، وتحت رزح مدارات العرق المتساقط، بينما تدغدغنا أمنيات بنسائم البحر، وافتراش الرمل والتنعم بملمسه بأقدامنا المتحررة من أغلال الأحذية والجوارب، خارج الأسوار.

الشمس من قوتها تفرض غمامة على أعيننا فلا نستطيع التحقيق فيها، أو رفع هاماتنا صوبها، من فرط حدة شعاعها، تفرض عماءً لحظياً فنسقط نظرنا على الفور ليوخزه ابيضاضٌ آخر لرمل الفناء، وزي الألعاب "الأبيض" الذي جُبلن على ارتدائه كاملاً درءًا للعقاب، وسترًا من أعين الصبية بمدرستنا المشتركة، وعلى اختلاف طبقات الأسر ومدى توفرها كان الزي قطعة واحدة ذات ثنياتٍ متساوية ومطوية من قماش "الاسموكن" بانعكاسه اللامع أو "التيرجال" القطني الأملس مع "كولون "أبيض"، فذلك كافٍ برفع الأنوف عالياً، واستطالة القامة كراقصة باليه، والزي "المتوافق" من قطعتين، مثل قميص وبنطال أو تنورة، يفي بغرض اللون ويقي مغبة العقاب، لكني كنت أنتمي للفئة الثالثة التي تجتث من بين الصفوف بسهولة لأنها تشذ عن اللون، وتغرد خارج السرب بانحناءة عنق، والتحديق

في حذاء "باتا" الأبيض، فهو الوحيد الذي أواظب على ارتدائه طيلة الأيام وجميع الحصص.

ينتهي بي المطاف قابعةً فوق أقرب نتوء حجري وسط الفناء، أتمركز نقطة التفاف الفتيات في تدريبهن، أفقياً، وأتمركز نقطة سقوط أشعتها رأسيًا.

لم يكن يعنيني أمر العقاب البدني بالعصا، قدر ما كنت أتهيب من عقاب "المركز" المستحدث هذا، كما كانت تطلق عليه مدرسة التربية الرياضية، لم أهتم بتبرير عدم إحضاري الزي، ولا بسرد الأسباب والتذرع ببعض الأعذار أو اختلاقها مثل بعضهن، فتفهم من تلقاء حالها أنهن تحت وطأة الدورة الشهرية، لا بل كان يعنيني ألا تسأل لكي لا أجيب، فتحولني إلى الأخصائية التي بدورها تصطحبني عنوة للمنزل، كنت أغلب الأحيان لا أرد، أو أطلب منها تسجيلى (غياب) لأن السجل في حيازتها كمهمة موكلة لها بالإضافة لعقاب الأبيض.

مارست كافة الضغوط على أمي كي أحصل على قطعتين من الأبيض "علوية وتحتية"، بالكاد وبعد اقتسام موارد أخرى من مخصصات كساء الأعياد دبرت أمي أمر القميص والسروال الأبيض.

يومها ظللت أتحين رنين الجرس كي أتقافز معهن إلى الفناء، وأشاركهن رقعة تبديل الملابس، وأخطو بينهن لا تشوبني شائبة لونٍ مغاير، أو خجل متوارٍ عبر تحديقي إلى نتوءات الأرض، ودهس النمل بحذائي، وإغماد رأسي على كفيَّ في سأم وضجر تحت رزح لهيب الشمس، كل هذا تبدل وأضحى بإمكاني مشاركتهن، وتحديهن بل ولكزهن في التبارى والعدو، كان هذا سبباً كافياً لرضائي وغبطتي بضع دقائق، وأنا "أتمخطر" بينهن بالأبيض، وأركل الكرة، وأقفز لتعلو بي قدماي

فوق الأرض لتعاود السطو بثبات على مكانٍ خاصٍ بها، يتسع لخطوها بينهن، حتى مالت على أذنيَّ إحداهن وهي جاحظة العينين، فاغرة الفاه، وصوت شهقتها يخترقني وينذر بكارثة : إلحقي بنطلونك كله دم !

كانت أول مرة لي ، حين ارتديت الأبيض الذي تضمخ بها، وأول مرة للأبيض حين غام وتمرد عليّ .

اللون الأبيض كرِهَني علانية فيما بعد، على حوائط المنازل الباردة التي تركني بها، وحيدة أنتظر صحوته من نشوة سكر أو مغبة حزن، على لون المستشفيات التي طفت عليها دون جدوى لأمنع ألم أحدهم، وأسرة المرضى حين شاركتهم التأوهات والامتعاض، والصبر الموصول في "كانون" إلى الأوردة الزرقاء، ولون الأكفان المصطفة في وقاحة فوق أرفف الحلاق والمشفى في تبجح، وجلباب يوم الجمعة الذي لم يجد أبي ليرتديه، من فرط غيابه عنا، وهو على المشجب تموه بألوان القنوط والتململ، والكذب الأبيض في أطُرٍ سوداء، ولون رداء الليلة المعهودة على فراش زفاف القنص والنزال، حين رفضت قطرات دمائي الفارة أن تسال خلف غشاءٍ لدن، أبى أن يُخترق ورفض تلويث الأبيض، الأبيض خاصة تلك الليلة استحال إلى الزهري واختلطت به الأمصال، الأبيض الذي تمنيت أن يراه غيري في قلبك، الأبيض الذي تجمع في غربال أمي مختلطاً بالنخالة وديدان الخزن؛ لتصنع لجوعى الفرحة كعكاً محشواً بالصبر، أبيض الملح الذي تجمع بأصابعنا المجلدة في صبيحة شتاءٍ لم يعرف لأبيض اللبن الساخن طريقه لأفواهنا، وقضمنا من سحب السماء، هل الأبيض يعد لونًا؟

٥- الملح

عرفته حين كنت فى عهدة "أم صالح " جامعة الملح والصبايا وأحلامهم التى تطُمر فى خبايا الملح..

انزوى إلى ركن على ظهر عربة النقل الكبيرة، أسند رأسه المغبرة إلى الصفيح البارد لسور العربة، أخذت تتخبط مع مطبات الطريق. الوقت فجر، يحلم بأن يرفل تحت غطائه الصوف، ويفرك ظهره في حرارة فراء الخروف الذي جلبته "هانم" من آخر عيدِ أضحى، وتناولا فيه "الكرشة"، سال لعابه حين تذكر، مسح بطرف الخرقة التي لفها آنفاً على يمناه، سمع ضحكات الصبية، أشاروا له حول أنفه أيضاً، غمغم وأناخ رأسه ثانية، شخص للسماء وتابع غيمات الفجر الذهبية وتمازجها مع السحب البيضاء، رأى نفسه يطير بين السحب، يمتطي غيمة ويضع قدماً على الأخرى، ويقرأ في كتاب ألف ليلة وليلة وحوله البنت "آية"، بنت السائق الجحش، ترتدي الأبيض وتمسك بيد مروحة من الريش، تؤرجحها حول رأسه المنكبة على الكتاب، والهواء يلوح حوله باردًا على أصداغه وشعره المنسدل على جبهته.

فركها بأصابعه، نظر إليها، قتلها بين ظفريه ومسح دماءها فى ملابسه.

تنهد بقوة، قالت له أخته "هانم":

- إنت راجلنا، والراجل يستحمل وينشف عضمه.

نشفت عظامه، وجف لحمه أيضاً، وتشققت يداه قبل قدميه من الملح، وجمعه بالأجولة.

قذفه الآخرون معه بحصوات كبيرة من الملح يبست في أركان العربة، بوغت، استقام وأخرج من جيوب سترته الرمادية المهترئة مجسمات عرضية وطولية لملحٍ متكلسٍ صلب، أخذ في رشقهم بها وهم يتفادون تصويباته تجاههم، أخذته الحماسة فاستعان بمترسب الأجولة التي بحوزته، وانهال عليهم أكثربالسباب والشتائم حتى نفرت عروق رقبته المتحلقة بوشاح "هانم" المشجر، الذي أحكمت لفه على رقبته قبيل الخروج فجراً؛ لأنه يعاني احتقان اللوزتين، سخروا منه أكثروتضاحكوا حين وضح الوشاح بزهرته الكبيرة القرنفلية:

- هههه، يا أبو وردة يا حنيّن.

- تربية مرة، عامل لي راجل يا بيضا.

- ورينا المرجلة يا روح خالتِك يا أبو بربور.

كَمد غضبه وألزم ذراعيه بحمولتها من الملح حين صاخ سمعه طرقعات على أصداغهم، استداروحمل أجولته العشرين الفارغة، وكأن شيئاً لم يحدث، هبطوا جميعاً يعبون من جواهر الأرض الماسية، وواصلوا سخريتهم منه، حتى الولد الذي يطلقون عليه "فوزية"، لأنه ناعم وفرفور ومايع، أخذ يتضاحك أيضاً.

لم يعبأ لهم، ودخل في غيمته البيضاء ثانية، تلك المرة يروح في غيمات الملح وتعاريجه، تأخذه أخذاً عزيزاً تلك التعريجات الربانية، هكذا يسمونها؛ لأنها من فعل الريح والملح وليد "الملاحة" يرمي به لهم ليسترزقوا هم وغيرهم، هويتيه فيها، يسخر الأولاد منه، يلعب بها، يجمع الأشكال المتكلسة منها، يعبها في جيوبه رغم تقيحات يديه

منها، لم ينه يوماً العشرين جوالاً خاصته، دائماً ما يحصل على الركل والشتائم من الأسطى؛ هو دوماً شاطح, سارح في الملكوت.

خرقت مسامعهم صوت الصفعات المتلاحقة، والشتائم بالأب والأم الراحلين، والأخت "هانم هريسة"، كما يطلقون عليها في خيام الخيش:

- اشتغل يا ابن البرطوشة، إنت عليَّا بخسارة، عمرك ما كملت الطريحة بتاعتك، يخرب بيت توهان أهلك .

ثم مضى خلف الكبوت يدخن سيجارته .

تجمعوا حوله بأجولتهم، فك بعضهم خرقته الملتوية حول المعصم والأكف، مسحوا خيوط الدم المنسالة على فمه ووجهه، وربتوا عليه، وأخذ البعض الآخر أجولته الفارغة في سرعة خاطفة واستبدلوها بأخرى مختنقة بالملح .

على ظهر العربة، تسطحوا جميعاً فوق الأجولة، تمرق بهم العربة، وهم متمددون يتابعون معه الغيمات، يخرج من جيبه بعض الأشكال المتحجرة للملح، تلك بطة، وتلك مركب بشراعٍ هرمى، وذلك جمل بسنام مدبب، والبنت "آية" تلوح بمروحتها الريشية فوقهم، يلاحقون الغيمة التي تختفي خلف الشمس الجديدة، ويطوون صفحة جديدة من كتاب الحكايات .

٦ - التلصص

الساحة الخلفية، ما بين أسوار المصنع ومنازلنا، مساحة شاسعة لا حصر لها، كانت متعتنا في تقفي أثر المختبىء في لعبة "الأستُغماية ". أماكن ما زالت بعد عشبيةً تسمح بإقامة "مسرح متخيل"، وسرد ما أجدنا حفظه من أفلام اليوم المفتوح، وكان يحل موعده يوم "الخميس"، نتجمع وكلٌ منا يستعرض هوايته بعيداً عن أنظار ورقابة الكبار، كنت وقلة ممن يهوون "التلصص" يثير ريبتنا الكبيرة رجل لم يتخط الستين بعد، يعيش بمنزله الصغير وحيداً، اعتاد في المرات القليلة التي لمحناه فيها أن يخرج متدثراً بالكثير والكثير من الملابس الشتوية، حتى في قيظ أغسطس.

يخرج في عجالة، يأتي بمؤنته الضرورية ويعود، في وجوم مطلق، لا يتحدث مع جار، أو يلقي التحية، تظهر على ملامحه أيضاً الكآبة، أطلقت النسوة عليه الأحكام تكهناً بسبب عزلته وتلحفه ليل نهار.

- الراجل يا إما هربان أو مطارد .

- هو محروق أكيد، وكمان متشوه، أعوذ بالله .

- جربان، ربنا يشفينا .

لم تعد تعنينا تلك الاجتهادات، أو ترضي فضولنا، لم ترهبنا المحاذير، بدأنا بالتلصص عليه من نوافذه الخلفية في الساحة، اعتلينا ظهور بعضنا بالتناوب، وجلبنا درجًا خشبيًا من المهملات متآكلاً، وصعدنا عليه، لم نجد سوى ما نراه أمامنا، يمر وهو يحكم زر البالطو الصوفي

البني المغبش بخيوط بيضاء، ولأنه بالٍ من الأعلى؛ فإنه يلف وشاحًا رماديًا فاتحًا حول صدره ولحيته المرسلة الشيباء، ولا نلمح سوى عينيه اللتين تغفوان أمام التلفاز، ورأسه التي تسقط إلى ظهر المقعد.

ظللنا على حالنا بعض الوقت إلى أن مللنا، وتوقفنا عن تلصصنا غير المجدي لفضولنا.

ذات مرة سمعنا صوت "أم هدى" بائعة الجبن والبيض تقف بالباب تنادي "ياحاج" بضع مرات، ثم تدلف إليه من الباب الخلفي للمنزل، ثم وجدناها أعلى المنزل تبذل أقصى مساعيها في نفض سجادة كبيرة، أعيت صدورنا من كم الغبار بها أكثر من دهشتنا لوجود "أم هدى" أعلى المنزل !

- ما الخبر؟

- بيقولوا اتجوزت الراجل الكبير المستخبي ببطاطين ده !

ناوشنا الفضول مرة أخرى، ماذا يحدث، ولمَ؟ وكيف؟ ولماذا؟

عدنا لاستراق السمع مرة أخرى، والنظر من بين فتحات الشيش المكسورة، ماذا هنالك بعد؟

رجل لا نعرفه، حليق الذقن، يبدو أنه كهل، لكنه متعافٍ، ولا يحمل كل الملابس على جسده كما الآخر، يتجلى نحيفًا في ملابسه الخفيفة تلك، يا للهول هو يضحك، وعيناه تلمعان، ولم يعد ملتصقًا بمقعده السرير الذى كان يغفو عليه وربما يقضي ليلته أيضاً.

وها هي "أم هدى" تأتي له بطبق حلوى، يبتسم لها وينحي الطبق، يقبّلها في وجنتيها، تضحك، تجرى الدماء في وجهه الحليق، يربت عليها، يحتضنها.

من أين أتت له كل تلك العافية، والبشاشة المتبدية على ملامحه وعينيه اللتين تومضان فى الظلام؟

يضحك الرجل بصوت عالٍ، يقهقه ويهتز فى سعادة جسده النحيل العاري من الأغطية .

يخرج متأبطًا امرأته المختالة به، يرتدي جلباباً أبيض، ويضع على رأسه "طاقية" شبيكة رفيعة بيضاء .

علمنا للتو واللحظة أن الرجل أبيض البشرة، وله عينان رماديتان، وشعر اختلط سواده مع أبيضه؛ فحصل الكهل المتأنق على شعرٍ رمادي رائع .

أضحى كلما مر بتجمع للجيرة يهز رأسه، ويرفع كفه اليمنى في محاذاتها ويلقي السلام، وتفلت زوجته ذراعها بمودة وتميل برأسها تستأذنه أن تعانق "أم فلانة" التي تسير في اتجاههما؛ فيبتعد جانباً بأدبٍ جم، ويومىء برأسه تحية لمقبَّلة زوجته .

بعقل الصغار تساءلنا: أين ذهب صقيع الرجل؟!

وبعقل الصغار أيضاً بحثنا عن مدفأة أو شعلة خفية داخل المنزل.

لكن عقل الكبار لم يأبه ولو لمرةٍ أن يطرق على جليد الرجل، أو يثقب كوة نور داخل ظلماته، عقل الصغار فقط هو من تلصص وعثر أثناء تلصصه على كشف جديد يدعى "المحبة".

٧ - (بدان)

يوم آخر يضج بالتفاصيل المملة، والمعاملات الحسابية التي تحض ذهني على الانسحاب من المشهد، والانفلات من الزمن والغياب من المكان، عقول مميكنة وأرقام، جميع الأشياء تصبغها العادية، لا شيء يستهويني، بدا لي كل شيء خواء، اليوم فقط بكل زخم الرتابة الموغلة في أحداثه أصطدم بهذا الوجه المطل عليَّ من جُب الماضي كعلامة استفاهمية كبيرة، تباغتني، تخترق تلال رماد خاملة داخلي.

بنظرة من عينٍ تبضُ دمعاً، والأخرى زجاجية، لها باع كبير معي منذ كنت طفلة، ولم اليوم؟

استماتت على وجهي، تبحث عن تيهٍ خاص غادرها، واختلطت عليها الحدقات بفعل جينات الوراثة .

سؤال يلح ويلح، يكادُ يقفز من حدقتك الوحيدة تلك، أجزم بأني أسمعك، آه لو كنت طرحته عليَّ فى وقتٍ سابق؛ كانت ستلهبك الإجابة، ولم تكن لتُعفيك دموعك من سلاطة لساني حين كنت أقطع عليك ذرفك لها بسؤالي الساخر:

- حتى دى كمان بتَّدمع ؟!

أتذكر المشهد كاملاً الآن، أسمع نحيبك، وأتذكر قذاعة ألفاظي معك، وأتذكر جملتك العقيمة التي لم تملك سواها لتلقيها دوماً في رقعتي الدامسة :

- بكرة تكبرى ،وتفهمى .

غداً ستنضجين، ستعرفين، ستفهمين، وتسامحين.

هيييه ...

احترس، أنت أغرمت بأمي، ولم تدس بالخطأ على إصبع قدمي، هي حاولت استبدالك بأبي المفقود في غَيابة الخريطة، لم أنكر يوماً أنك أطعمت الصغار، وتصديت لحِفنة المتطفلين علينا، ولكنك تسببت فى سيلٍ من الأقاويل والشائعات لازمتنى وأخوتي وأبي إلى أن يفعت، وفررنا بمغادرة المكان وبيع المنزل، هل تعلم أنها لم تبق بالمنزل الجديد سوى عامٍ ونصف العام، كانت مريضة ولم تجدِ الجراحة ولا العلاج الكيميائي نفعاً، وبعد فترة استعطفت الرب بالمرحمة والمغفرة، فارقت الحياة.

- لم تحدق بي هكذا؟

تلك أنا، لم تعد هي هنا منذ ما يقرب من الثلاثين عاماً، أيها العجوز البائس المبتلي بعشق امرأة سواك، هل ما زلت تفتش عنها فى وجوه المارة؟ لم تفقد بعد شهيتك في النهل من عينيها؟ حتى وأنت ترتكن إلى عصاك وبالكاد تخطو، أغبطك على تلك الصلابة، وأنقم عليك لأن قلبك مازال مفعماً بالحب، ومازلت تلقم الحياة بالأمل، وتتدفأ بجمرات الحب، لكن، ألم أخبرك أيها المسن الحذق، أتى الغد ولم أفهم ولم أعِ.

أتمنى أن يتقدم طابور السيدات فأعفى من شذراتك المحدقة بوجهي، أو أعفى من الاصطفاف جوارك بعصاك، بحدقتك الوحيدة، بأسئلتك التي تصيخ في أذني ولا يسمعها سواي، بقامتك المنبعجة إلى إحدى جداريات الرخام .

صوت الموظف خلف مكتبٍ مكدس بالأوراق والملفات :

- السيدة.....

إنها أنا، يااااه أخيراً سأخرج من هنا .

(يناولها الموظف الأوراق ويستدير نحوها يشير على مكان التوقيع.

وهو يتفحص هيئتها جيداً، باستنكار وصوت تملؤه السخرية...).

- إنتِ طالبة خلع، زمن العجايب يا زمن !

أنظر ناحية العجوز، وأريد أن تنشق الأرض وتبتلعني، أنحني صاغرة لأوقع في عجالة كمن يريد لمشهد مُقبض أن يمر وينتهي، أجمع بقية الأوراق من الموظف دون أن أنظر تجاهه، وفي عجالة أخترق أسراب اللحم التي تصطف على جانبي الحجرة المكتظة، أقاوم وأغوص وأمني النفس بالخروج من حلمي المزعج لأتنفس هواء الخارج الخالي من ذرات اللوم، وشذرات المحدقين، وعرق الرجال المصطفين وضجيج أسئلتهم الهامسة، وأهمها أسئلة العجوز الصارخة التي تخترقني وتلهبني دون الآخرين.

صوت ينادي في استدعاء، يلفظ الاسم الممنوع من العلانية، يا لهول جرأته، وجسارته !

- يا (.....) استني استني.

أتجمد، وأستشيط غضباً، كيف يجرؤ على مناداتي هكذا ذلك العجوز، كيف جرؤ على إيقافي؟ هل أراد طرح أسئلته الصامتة على مسامعي؟

(يلهج العجوز وهو يقاوم تيبس عضلات ساقيه، ويتقدم نحوها،

وفي رفق يمد ما بيده ناحيتها).

- خدي يا حبيبتي الورق ده وقع منك، خسارة ترجعي تعملي الإجراءات تاني .

تسقط كل الأوراق من يدي، تتداعى جميع الأسئلة التي تطرق رأسي منذ وطأت المكان، تسقط من حساباتي مقولات، وتساؤلات قديمة وكراهية عتيدة ماكرة .

"بكره تكبرى وتفهمى وتعرفى ".

ربما يأتي العفو فلا نستطع تذكر الجرم، ونؤتى الجرم ولا نحتسب للعقاب مقاماً..

لكن الجميع مدان فى وقتٍ ما .

تسقط كل التهم والإدانات السابقة، وتتبقى إدانة واحدة لصيقة بي أنا.

تعاريج القلب

هذا الوجه المقولب بابتسامة خلَّفت دوائر تحلَّقت حول أهدابي، أشبه باستدارات النهر فور قذفه بالأحجار، تموج عيناي، وتذويان في قاع وجهي؛ تريدان التحرر، تبغيان البحث عنك في شتى الطرق والوجوه، رأيتك ذات مرة تغلف أرغفة الفائض، وتجنبها عرض الحائط، لربما لبت رغبة جائعٍ محتاج؛ ألم يتقافز إلى عقلك اليابس أن تختصني ببعض لقيمات محبة تكفيني عوز الحنين إليك؟

"وحشتني" الكلمة الدارجة عندما نفتقد شخصًا، نطلق لها العنان دون التفكير في كنه هذه الكلمة، أهي الوحشة التي نُلقَى في جُبها حين يغيب الآخر عن المشهد، أم الوحشة التي نلقاها، ونحن محتشدون بأناس لا نفقه للغوهم معنى، ولا يرتد لسمعنا سوى كلمات، وهسيس، وضحكات غائب، فقط.

وأنت دوماً تضعني على محك الطريق، أقطع المسافة ما بين خطوات وئيدة تجاهك، أتحسس فيها مواضع أقدامي بروية، وبين الاتجاه الآخر، أحصي عدد خطواتي في طريق العودة منكسة الرأس، أحمل بين طيات نفسي آلاف اللعنات لقلبي الذي عاد بي إلى نفس التعريج، ما بين طريق عودة أحفظ معالمه وتعريجاته ولا ألقي بالاً له، في كل مرة، أو أحتاط وأسلك طريقاً مغايراً، أو أسلم قدميَّ لطريق الذهاب دون استراق النظر للخلف، أو أن أبقى على مفترق الطرق، تتجمد قدماي، وكذا قلبي، وأحتفظ بعقلي معافى من التعريجات.

ا-وخز

يستدعيني بإيماءة، وارتخاء جفنٍ، أتحقق من وجهه، واهن وبالكاد يستقيم، ويتوسد الجدار؛ يلتهمنى الوجل، اليوم الخميس آخر الأسبوع، إذًا فقد كان .

يضيق صدره، يزفر:

- يابِت.

لا يطلق علينا المسميات، فنحن ثلاث فتيات، وامرأته، ولا يخرج مسمى إحدانا عن كوننا "بنت"، وهي ترقية أنثوية رقيقة؛ تليق بنا كما درج هو عليها .

أهرع إليه، أقطع درجات السلم لاهثة، ألمح كيساً يعلق بمعصمه المتحرر، يحوي محقناً بلاستيكيًا وعبوة دواء، أعلم ماهيته مسبقاً، أرفع ذراعه المرتكنة على جداره المريض المتآكل، وأحمل عنه حمولته الشائكة، أتفحصها، وأخمش الكيس في استياء .

- تاني حقن؟

لم يكن يلقي بالاً لامتعاضي مرةً، فقط يزم شفتيه اللتين تركتا آثاراً، من فرط اعتراضهما دوماً، على جنبات وجهه على هيئة خطوطٍ نصف دائرية أحاطت بفمه، وما أن يصل لأريكته حتى يبدأ بنفخي تبريراً يلقي براحة نفسية عليه

هو، ويصد عنه شبهة ولعه بالمسكنات، وذعره من الأطباء:

- الفولتارين بيسخني، ويعرقني، وأنام والصبح أقوم زي الحصان.

هو يتفادى تبرير اختياري لوخزه أنا "البنت"، ولا يجد غضاضة في كشف عورته عليها .

حين أمرر له مشورتي بأنه حين يعرج على الصيدلي، ليقتني أمبوله الغالي، فيوكل له مهمة الوخز، فيرد في استياء صادق ومستجدٍ لتعاطفي :

- إيده جامدة.

أرضخ له، أوخزه، أجفل، يتأوه، يخترق الدواء أوردتي، يسري الخدر في جفنيه المستدعيين لي :

- بالشفا.

يرفع كفه فوق المزمومتين ألما، ويقبلها من الوجهتين، أركن إلى الخلاص، فأدثره بإحكام.

لم يك يدللني مثلهن، كان يوكل إليّ بما يشق على نفوسهن احتماله.

اليوم هو الخميس، أخيراً استجاب لي ليحررني من ثقل تلك مهمة...

استقام ظهره جلياً حتى طالت قامته السماء

استفقت من الحلم على وخز، وخز اخترق ضلوعي بالسقم وملأ أوردتي بالمرارة .

٢- سهاد

جولة ما بعد صلاة العشاء والتراويح كانت ذات مذاقٍ مختلف، حريف تماماً عما نازعته ذائقتنا، لاذع إلى حد متعة إغلاق الأعين تلذذاً، حلو يسري في حلوقنا عسله .

والمتفق عليه في تلك الرابطة والجولة الرمضانية "حالوو يا حالوو"، هوكريم بالفعل في وئامه للقلوب، في خيره المرسل على طاولات الفقراء قبل الميسورين، كريم في المحبة التي تغدق قلوبنا للآن من محصلة الذكريات الجميلة، والأثر الطيب العطر لتلك الأيام المندثرة.

***

ما أن ينتهي إمام الجامع من الركعة الواحدة بعد العشرين؛ تندفع جموع الصبية والفتيات في ساحة الحي الفسيحة، وهي ملتقى تفريعات الأزقة الأربعة التي يقطن أغلبنا في منازلها المضاءة بحبائل "اللمبات" الملونة الصغيرة الملتوية على أفرع الورق المزركشة الزاهية، بقصات المدائن والفوانيس، ومجسمات الكعبة، الخشبية منها والورقية، والتي هي مصدر لإضاءة غالباً سخرت للهونا إلى ساعات الفجر الأولى، وانطلاق مدفع السحور، لكن الأهم هي جولة العشية.

***

على كل فردٍ منا أن يصطحب تصريح انضمامه للصحبة وهو (الفانوس) وعهدنا كان الماسى لأننا حملنا الفانوس المعدني بألواحه الزجاجية الملونة، الفانوس ذو الضلفة الواحدة، حيث تفتحه وكأنك تخترق مدينتك المصغرة الخاصة بك، وتنظر داخل

لهب شمعتك المتوهجة بألوانٍ قزحية، فتملي عليك ما يتوجب فعله، وتهمس لك بأن استبدلني لأني هيأت لك نوراً وفيضاً ربانياً، واجمع شتاتي المنصهر في زوايا القارورة، من بين ثنايا الوهج الأخير الدافىء، وأبدلني خيراً مني أشد عوداً وأقوى فتيلاً.

***

نختار المنازل الهادئة، والتي لا جلبة حولها؛ لأنها في الغالب ليس بها أطفال، أو أنهم غدوا كباراً أو شبيبة، وبالتالى سنحوز عطف قاطني المنزل، وسيعاملوننا برفق وتودد ولن يردونا بالجملة الصماء والوجه المكَّدر (الله أكرم) ليغلقوا الباب في تعنيفٍ أضمروه لنا، ولم تواتهم الجرأة على المجاهرة به.

والجودة بالموجود، تمر، قطايف محلاة بالعسل، أو شريحة من صينية الكنافة الدبقة التى تقطر السمن البلدي، كل ما علينا هو أن نطرق باب المنزل، ويرتسم على وجوهنا بكر البراءة والدعة، وننطقها هكذا بطلاقة (حالوو يا حالوو، رمضان كريم يا حالوو، اِدونا العادة لقمة بزيادة)، وأتذكر أيضاً أني كثيراً ما لُقنت من أمي أغلظ العقوبات، ما إن وشى بنا أحد الصبية المنشقين عن الصحبة، حال اختلفنا على تقسيم الغنائم.

***

إطلالتها كانت مختلفة، تبدو عادية لكنها متسقة في جسدها الضئيل ووجهها الباسم، وبشرتها المشوبة ببعض الزركشة البنية الخفيفة "المنمشة"، بأنفها الدقيق، وحاجبيها الكثين، وشعاع عينيها الذي يضوي في استهلال جملتها القصيرة الخجلة، والتي لا تقوى على مغالبة التحديق فيمن يحادثها أكثر من "أهلاً"، ثم تطوي الأهداب أسفل، أسفل أغوارك التي اقتحمت للتو واللحظة، قصيرة القامة

ونحيلة لكن بتناسق لحق بركب الأنوثة الأول لطفلة أمست امرأة.

***

بعد كانت عروساً لم يمض عليها بضعة أشهر، وتقطن حجرة أسفل المنزل المجاور لمنزلنا، وتقتسم دورة المياه مع الحجرات الأخرى في الجوار بالتناوب، وهذا ما جعلنا نصطدم بها عشية كل جولة، نجدها تستند إلى الحائط المؤدي إلى دورة المياه المشتركة، تنتظر أن تفرغ من شاغليها، وتبتسم لنا وتداعبنا وتمسد على رؤوسنا بحنو ولطف تعدى عمرها الظاهري وواقعها الآني، كانت تنفحنا ما تيسر، أو اجتزأته من نصيبها الذي زهدت فيه ومنحته لنا مغلفاً بقبلة وتلويحة باسمة، ووعد بالمرور في الغد، هكذا كان العام الأول لها.

الخالة "سماح"، هكذا نطلق عليها رغم صغر سنها المتبدي، في العام الثاني كانت على أوليات قائمة التجوال، لم تكن بالردهة المؤداة لحجرتها كما عهدنا، طرقنا بابها برفق فلم تجب، نادينا "خالة سماح"، ففتح لنا زوجها بوجه كظيم، ولم يرد سلامنا، ولمحناها على أريكة بملابس متسخة وشعرٍ متنافر، وكدمات جلية حول العين، وما أن رأتنا حتى تحاملت على حالها وهي تجاهد أن تبدو هادئة، وتمسح حدقتيها من البلل، والأسى العالق بهما، وأرخت جفنيها وهمست لنا وهي تناولنا بضع تمرات يابسة، "كل سنة وانتم طيبين".

سمعنا حكياً في تجمعات الجيرة بأن "سماح لا تنجب، وزوجها يهددها بالزواج عليها إن لم تأت له بعيّل من صلبه".

كانت باقي الزيارات على نفس الوتيرة من التوجس والنبذ غير المصرح به من زوجها، أو استنطق به الخوف المتجلي بعينيها؛ فشحت زيارات العام الثاني .

في العام الثالث، تأهبنا لزيارتها على سبيل المودة والاطمئنان عليها، بعد أن استطالت قاماتنا بضع سنتيمترات، ولم نعد نحمل فوانيس أو نمد أكفنا ناحيتها لاجترار عطفها أو التمازح معها.

ما إن فتحت لنا بابها الذي تنزوي خلفه وحيدة؛ حتى وجدنا شيئاً آخر لم نعهده تماماً، امرأة مهوشة الشعر متسخة، ويتحلق حول جفنيها الغائرين السواد، بملابس رثة، مهتاجة علينا، لا تتوقف عن جملة واحدة "برة، اِمشوا"، وهي تشير لنا صوب الخارج، وتدفعنا من جمودنا وذهولنا ناحية الشارع.

هرعنا إلى ساحتنا، لا نعلم ماذا اقترفنا بحقها، أو من أدى بها لتلك الحال المزرية؟

أخبرتنا بعض الخالات أنهم وجدوها ملقاة على باب مقبرة، ذات ليلة، تحاول المبيت هناك كي تنفك عقدتها وتنجب، وأن آخرين حالوا بينها وبين قضبان السكة الحديدية من أن تلتهمها في محاولة منها لتتم "خضتها" وذعرها كي تنجب أيضاً، ولكن ما أدى بها لتلك الحالة هو زواج زوجها من امرأة أخرى، وهي الآن تحمل له الولد، وقد ضغط عليه أهل الحي ليتركها تعيش بتلك الحجرة، وهي تعيش على نفحات أهل الخير من الحي.

"سماح" التي لم تنل من نصيب اسمها شيئاً، أو تُسامح على ذنب لم تقترفه، وما زالت تحمل بداخلي غصة وحنقًا وحزمة من التساؤلات التي لم تجد إجابة، كلما مر هذا الشهر الفضيل تنقر على جدار ذاكرتي فأفتح لها، لتخبرني بأن "رمضان كريم"، والله أكرم وأسمح من الشهور والأعوام والبشر.

٣ - الحافلة

صخب يضج بالمسامع، جموع من الأصوات تعصف بذهني، أبواق السيارات الناعقة تنتزعني من رصيف الانتظار كشريط مطاطي علق بالأبواب الخلفية، ثم تطلق سراحي فيرتطم يافوخي بأسفلت الواقع المكسو تبريرات لا حصر لها، صعدت متن حافلة في توجس من أن يكون سائقها ممن يفرضون سرادق العزاء على مستقليها، أسكن مخاوفي قرع الدفوف والآلات النحاسية، والتي صاحبت "ثغاءً" من شاب يعاني نشاطًا مفرطًا..

انزويت بركن في ذاكرتي أحتمي به، كما اعتدت في تلك المواقف المماثلة، ترجلت إلى طفولتي حين كان يصطحبني بتلك الحافلات التي هرمت الآن، كانت دوماً خاوية إلا منا، وبعض المرتحلين من أقصاها إلى أدناها فى ذاك الوقت، لا أعلم لم ترتسم في مخيلتى كبيرة بحجم ينافي الواقع، كنت أتنقل بين المقاعد، أتخير إطلالتي على البحر، وهو يرقبني فجأة، قطع رحلتي الذهنية صوت السائق وهو ينادي:

- منشيه، منشيه، يالا منشية محطه.

بدأ توافد البعض في كلل، تأفف بعض الركاب :

- يالا يا أسطى عندنا أشغال.

أشعل سيجارته وتجاهلهم، تملكني الغيظ أيضاً، رغم عدم تعجلي، ربما لسلوكه، وتوتري الذي زاده تصاعد نغمة الاحتجاج من الركاب، وتعمد السائق زيادة صخب الإيقاع إمعاناً في اللغو، استقمت، وتهيأت لافتراسه، لكننى حينها لمحته، لمحته فى الأسفل رابضًا على الأسفلت بقدميه، مسنًا معقوفًا على عصاه الخشبية، يرتدي كنزات الشتاء جميعها فوق جسده المقوس، ويدثر رأسه ورقبته بوشاحٍ صوفي استحال لونه للرمادي الممتقع، وتناثر به بعض التفتقاتٍ الجلية التي تداعب لحيته الناتئة البيضاء، لم أر من هذا الوجه الملتحف بالصوف وخشونة الطلة سوى عينين "تئنان"،وتحدقان بي وهما تنحصران لتريانى فتنكسروتتحلق بتغضنات لا تزول، ويداه، إحداهما تقبض على استدارة العصا مثل مقود حافلة، والأخرى تتشبث بالعامود المعدني الصاعد للعربة، لم تستجب قدماه لارتفاع الدرج، حاول رفعهما مرة أخرى فخذلتاه، حدقت له، بادلني النظرة.

بخجل استجبت له، وهبطت الدرج نحوه، وتحوطته وبسملت، رددها خلفي بوهن :

- ياقوي.

ناجى ربه أم استدعاه؟ أم استدعى عزيمته الفارة؟ لا أدري...

أول درج، تذكرته وهو يصعد ناقلته العملاقة (الونش) يردد نفس استجداءات المسن لربه و يمسح قطرات العرق المنسابة.

ينظر إليَّ العجوز كمن يسألني "لم تذكرتيه؟".

نعم، والآن وهو شاخص للا شيء ويصرع ذاك الوحش الأسمنتي المتراكم أمامه بناقلته، والأسمنت يدهس فيه عمراً كاملاً..سرت العزيمة في أوصالي، وبادلت العجوز نظرة "مواصلة"، وأنا أرفع ثقله الرابض على الدرج الأول بساعدي، نفس العينين اللتين يملؤهما الأنين، لكن عينا أبي كانتا دوماً مغبرتين جراء الأسمنت الذي لم يخرج عن أتونه سواء بالمصنع، أو بعمله الحرفي، وهو يكسو الجدران لحماً أسمنتياً غضاً، ينتابه الصلابة فور ارتحال أبي عنه، كان ينظر لي، ولا يعقب على تعليقاتي الطفولية.

***

الرجل المسن لا يساعدني، يلقي بثقله عليَّ وكأنه حق مستوجب له مني، يرميني بنظرة كأنه يطالع ما يدور بخَلدي الآن، لم أدر لم تذكرت حين اخترقت السياج الخلفي للمصنع، ذاك اليوم كعادة كل ظهيرة، لأصطحبه للغداء وأقتنص زجاجة الحليب والجبن "الديمكس" وجبة إفطاره المجانية، يومها وجدت وجهه غائمًا وحدقتيه لا تستقران على وجهة، ظل ينهل الطريق عائداً، وأنا خلفه أتقافز، ألح بسؤاله عما حدث، أبحث في جيوب "الأفرول" الأزرق عن جبني ولبني، وهو لا يجيبني، ولا يمهلني اللحاق به، بكيت، حتى وصل إلى أمي ورماها بالخبر في ثورة:

- سبت لهم المصنع يطّربق على دماغ أبوهم.

***

تأوهت أنا عند الدرجة الثانية، سرى التعب في جسدي أم روحي؟ أحسست أنى لا أملك ما أقاوم به، لم يسقط المسن عينيه عني، كان يقرأ معي، أفلت أصابعه القابضة على كفي الذي أورثني إياه أبي، ثم

عاود الكرة بقوة وهو يلهث :

- يااامهّون.

لم أشعر سوى أننا معاً على متن الحافلة، طرقت جدارها المعدني ليتحرك السائق المتململ :

- يالا بينا يا أسطى .

أجلسته على مقعدي، وأرحت عصاه المتصلبة بجوار نافذتي، طوقت مقعده بذراعي، وشخصت للبحر، وخلفي الحافلة كبيرة كبيرة، والمقاعد خاوية، وهو، يرقبني بعينيه الحارستين اللتين يملؤهما الرضا.

٤ - حواء

البحر يلفظ معتليه، والبيوت تكاد تكون خالية، نسير كأسراب الطيور فى مجموعات مكتحلين بالأزرق، نخاتل البحر ونستجديه الغزل الصريح، ونلوذ بصخوره الرابضة في رحابة البحر، ونحتها الملح المتكلس بنقوشه؛ فصارت أشبه بالإسفنج الصخري، أقرب إلينا في الهيئة التي توحي بالغضاضة، ولها ملمس الزجاج المنشطر.

تخرج علينا من ثنيات الحواري، ومن طيات الشوارع، تعوي، تلكزني من تجاورني في فزع وبلهجة آمرة :

- يالاّ بينا، باتعة الهبلة جايه علينا .

"تحجل" باتعة في اتجاهنا، كانت تعاني من اعوجاج في كاحلها الأيمن، وعجزاً دائماً في ساعدها الأيسر؛ فتمشي كمن يقفز خطواته، وهي تقبض على ذراعها المعطوب كي لا يتأرجح معها، مهوشة الشعر دوماً لكنها نظيفة، وملابسها لم تكن رثة أبداً، لكنها تحوي الكثير والكثير من الفتق من تكرار سقوطها، ومحاولتها الاتزان بضم ساعدها المتدلي في خصومة لجسدها؛ لم يكن كافيًا لكبت جماح ثدييها الضخمين المرتجين، ولعابها المتقاطر أعلاه.

كنا نخشى "باتعة" ونتحاشاها بناءً على توصيات ذوينا، وهي فور رؤيتها لنا تطلق الساق والنصف لتعدو نحونا، وهي تهلل في فرحِ طفلةٍ ببالون زهري، كانت حين تطال إحدانا تبتهل، وتظل تلفظ مسماها الأوحد لنا..

- الله.. "عيوسه".

ولا يتوقف الحال عند هذا الحد، فتبدأ بملامسة وجوهنا، وتحاول خلع رموشنا، أو التحقق من جدائلنا، ونزع أقراطنا في مرح:

- الله حوه.

البعض منا يتقزز من لعابها الذي يتزايد من فرط حماستها لنا، والأخريات في لؤمٍ بيَّن يؤلمنها بالقرص، ويتضاحكن على تأوهها ذى اللثغة.

- أوو، أي أي عيوسه.

كنت أنزع (دبوس الصدر) من بين جنبات الجيب الذي كنت ألصقه فوق السَّحاب كعمل احترازي، وأضم فتق جلبابها الأمامي ليواري بعض لحمها المتدلي، كنت أتحير بحثًا عن مكان لغرسه من كثرة الشقوق به، وأنا ألمح أعين المارة الشبقة محدقة، والرؤس المشرئبة، البعض منهم يعلن استياءه رغم تمنيه بانتصاب الزمن، وبعضهم يطفىء نظراته الشرهة بالحوقلة والاستنكار، والبعض يدخلها ويتبعثر داخلها وهوواجم، لا يرديه بصق البحر عليه؛ فلا يستفيق، ولا يتدنس.

كنت أشك في أنها تعي؛ لأنها تبغضهم إن طال المشهد بها، فتميل لالتقاط الحجارة في عِبّها وترميهم بها كيوم عرفة، وهي تردد:

- ياكب، ياكب.

ثم تعوي خلفهم في قفزاتها :

- عووووو.

سألت أبي الذي كان دوماً يتمازح مع أمي، ويقول لها وهو متأنق وينتوي الخروج "هاخرج مع البت باتعة، ونروح السيما":

- هي بتعوي كده ليه؟

لم يرد أبي سوى بكلمة واحدة، هي عنده في قاموسه اللغوي "مانعة جامعة" :

- غلبانة..

كنت عندما أتلقى منه الإجابات القانطة تلك؛ أحجم عن السؤال مرة أخرى، فالموضوع شائك .

انفرط الصيف منا في لهوٍ ودراسة ومراجعات، تناسينا أمر باتعة، ولم نعد نسمع عواءها، ولا نلمح نباح متلصصيها، فجابهت أبي بالسؤال عنها؛ فما كان منه إلا أن ثار عليَّ، وحدثني في موضوع آخر، وانهال بحزمة أوامر على شاكلة "تروَّحي على البيت على طوول"، "وأخوكي يوديكي الدرس ويجيبك"، "ما فيش طلوع بالليل لأي سبب"!

إجابة أثارت حفيظتي أكثر؛ فلجأت إلى أمي بما يعتمل في صدري من تساؤلات؛ فأجابتني في أسى واضح وإيجاز لم أعهده بها:

- الغلابة ما لهمش دية، الله يرحمها .

جبنت عن سرد التفاصيل، أو التقصي عما وراء الواقعة، لكن غصة قوية وحادة ظلت للآن كلما مررت بسور المكس، وأرائكه الحجرية، حيث كنا نجلس وتحجل بيننا، وتميل بالقواقع على آذاننا لنسمع هسيس البحر، ونداءه لها، وعواءها المنتشي بالنصر على كلابها المتلصصة (عووووو) التي ظلت ترنو بأذني.

٥- لأنك أبي

تملك كفاً غليظة بأصابع منتفخة قليلا، تعلوها عروق نافرة، ذات استدارة واضحة على الجلد، رغم تناسق جسدك وميله للنحافة، ورغم انتقادي الدائم لبنية يديك التي أورثتني إياها، إلا أنني أتذكر يوم جففت دموع خوفي بهما، وواريت رشح أنفي من فرط رهبتي في قصاصة القماش الندية الملونة التي طويتها، ودسستها داخل شق زي المدرسة "مريلة تيل نادية"، ولا أعلم حقيقة المسمى سوى أنه قماش قطني مائل للصفرة المشوبة بدكنة ما.

ثم جاهدت قصر قامتي لأعلق بأحد أصابعك، وهززت كامل ساعدك مما يعني "يالاّ"، وسرت معك في اليوم الأول لالتحاقي بالمدرسة، وأنت خَجِل لأنك بالزي العسكري وسط حشود الجيرة ممن اصطحبوا أبناءهم .

تلملم كسرك وأنينك في جيب بنطالك مع اليد الأخرى، وتطلق العنان لحنوك المخبوء في سترة المعارك في اليد الرهينة لإصبعي، أؤرجحها خلفاً وأماماً كيفما زهوت ورغبت في إعلان التفاخر بك، حتى نصل عتبات المدرسة، فتحاول نزعها مني برفق، فأصوب نظرة حادة من عيني متوعدةً بالتمرد والعصيان، وتلتحم يداي الاثنتين على إصبعك المسلوب، أشده نحو الداخل حتى تتخطى عتباتها، وتنظر نحوي بتقطيبة، وتغلق أهدابك على امتعاضة بادية، حتى المخاطرة بالأعين لم أسلم من نقل عدواها إليَّ.

ولأنك أبي؛ كنت تتحاشى أن تفسر بالتعالي والتفاخر ببزتك الترابية المموهة، التي طبعت على جسدك زركشتها الخضراء الداكنة، وغبرت جلدك بصفرتها القاتمة، من فرط ارتدائها لك.

والغلبة لي دوماً كما ارتضيت ورغبت عن نفسٍ زاخرة بكل صنوف الحب وبراكينه الخامدة، تخطو وأنت مطأطىء الرأس، وأنا أبحث عن "الأبله" و"الأستاذ" وعم "فتحي" الفراش لأرميها إليهم قبيل إطلاق سراح إصبعك بكل حماسة وزهو: ده بابا في الجيش وعبر القنا!!!ال.

فتربت على يد الشيطانة الصغيرة التي أسرتك وزجت بك لوطيس معركة تتحاشى وطأها تحرجاً، بل وضعتك داخل بؤرة الحرج نفسه لكنك تترفق بي، وتدير دفة الحديث بكل ليٍن ورفق وعين يلمع فيها الحب والدمعة .

- يالاّ يا بابا روحي فصلك بئا.

فأفلت الرهينة، وأخطو ناحية الفصل، أدب الأرض بقدميَّ، منتصر يجوس في غبار عرينه بزهو، أؤرجح خصلاتي المجتمعة أعلى رأسي في ذيل حصانٍ يرقص رقصة النصر بعد الغزو والإغارة على حصون الخجل .

***

لأنك ببساطة أبي..

بدون حديث، ولا كلماتٍ تؤطر حوارنا، تمدها إليَّ كجذع شجرة أرهقه ريح الزمن ويلتمس دعامة، أمد ساعدي إليك، تركن إلى روحي التي رويتها آنفاً، نحن على عتبات المشفى وجسدك يأبى أن يطاوع ساعدي في الخطو نحو بهو المكان، أجذبك أكثر فتلومني بهدبيك

المبتلين، فأحوط روحك وجذعك النحيف داخل جلبابك الفضفاض، فتأمن قليلاً وتخطو أكثر، ثم لا تلبث أن تعاودك الرهبة من الأسرة البيضاء وتأوهات النزلاء، فتقبض على ذراعي وتلتف على روحي بحبائل خوفك وتوجسك واستجدائك، أومئ لك، وأحوطك أكثر، فتلين قليلاً وترتخي حبائلك عني، حتى نصل لفراشك المعد، وطبيبك المتحفز لمعاينة علّتك، فتسلم له كامل جسدك عدا كفك العالق بي.

***

في يوم المدرسة الأول، عدت بصحبة أخي لأجدك على المقهى تبتسم لي، وتهز رأسك طلباً وسماحة، أعدو إليك وأعتلي ساقك اليسرى، فتحوط ذراعك خصري النحيف والمكسوبتيل "نادية" وأنا متربعة على عضد ساقك، وأنت تسرد للمتحلقين حولك تفاصيل الساحة وأيام حرب اليمن، والقات الذي لا يفارق أصداغهم، كان أقصى امتداد بصري عنقك، وأنت تتحدث عن واقعة إبان الحرب، وكيف جابهتم قيظ ذاك اليوم الرمضاني، ومددتم الخراطيم إلى القناة، وأنا أرقب علو وانخفاض تفاحة آدم بها، وأعيد الكرة على وجوه المتسامرين، فأرى اللهث والعطش وحبات العرق المتحجرة في نفوسهم، وخوفهم السائل المنزلق داخل حناجرهم، كنت تحكي وتنفعل وتهتز بجسدك وتضيق الخناق أكثر على خصري، وأنا أهتز وأصعد وأهوي مع حكاياك، أعلو مع الدانة، وأخفض رأسي للرصاص المنطلق، وأنا في أماني الخاص أمسح شعيرات ذقنك الناتئة البيضاء، التي هاجمها الشيب بين ليلة وضحاها، وأنا أعلم دونهم مكان غصتك الموجعة، وذكراها، ولحظة مغايرة تماماً للحدث، حين كنت تُلاحق وتُعيَّر بذات بزتك تلك إبان "النكسة"، فألمس استكانة طافية في صوتك، وأنزل بيدي قليلاً لأمارس دوري الكامن خلف طفولتي ما أن تهدأ وتيرة

الحديث البارودي، حتى أبدأ لهوي في محاولة يائسة لإغلاق أزرار بزتك السمراء المستديرة، بأصابعي المكتظة الصغيرة، التي هي لك.

***

في المشفى، أمر الطبيب باحتجازك في العناية الفائقة، ولم ترضخ إلا باصطحابي لك على كرسي جوارك، وأنت تحت تأثير المسكنات وجلسات التنفس، أقبع على بعد سنتيمترات منك وأنا أشاهد فمك مكممًا بغطاء بلاستيكي ينفذ منه الأكسجين إلى صدرك، الذي يعلو وينخفض في اضطرام، وعنقك المتجعد، وذقنك الشيباء تماماً، وتفاحة آدم المنزلقة، وأنت تبتلع مرارة المرض ومرارة الدواء الذي اجتررته قسراً من يدي التي تخلت عنك حين غبت عن وعي المعركة الحياتية، ولأنك أبي استفقت بحثاً عني، ويدك تغوص في نطاق فراشك، وتنقب فضاء جوارك حتى اهتديت لي وطلبت طعامي.

***

شددت على أصابعك التي تقبض على خصري، فملت برأسك ناحيتي تنصت لما سأسر إليك به، تتابع تعليقات المتحلقين بعينيك الرخوة وباقي حواسك لي: عايزة آكل، جعانة.

تربت بيديك وتغمض أهدابك: حاضر يا بابا .

تفك حزام أماني وتمسك بكفي الصغيرة، تنزلني، تستقيم، تستأذن لأمرٍ جلل، أقطع العشرين متراً بين المقهى ومنزلنا وثباً، بقدم تتبادل خطوها مع الأخرى، ويدي العالقة بكفك عمادي، ووتدي.

على طاولة الطعام الأصيلة "الطبلية" كنت تفترش مكونات الطعام، وبنهم معرفي لطفلة لم تعِ كيف لرجل أن يتقن فنون الطبخ

ويستهويها هكذا، كنت من فرط شغفي بطعامك أتقزز من تناول ما تطهوه لي في غيابك، فملَّت إرضائي، وتركت الأمر فيما بعد برمته لك، كنت تطهو لنا بوهج الحب، وتضيف توابل المرحمة، وتختصني بشرح تفاصيل الإضافات، وحبكة التوقيت، وقواعد الانتقاء، ذقت من يديك ما لم أستطع صياغته في إناء الوصف وطُمر في مرارة الثوابت.

***

كنت تأكل بنهم طفلٍ يستعجل الخروج للهو في ساحة المنازل القريبة، تقضم حبة الكوسة المحشوة، وتعيد عليَّ السؤال المتحشرج مع حبات الأرز: هاروَّح النهارده؟ مش كفاية كده، أنا بقيت كويس.

أهادنك كما كنت تفعل معي، صغيرة كنت وأخشى امتعاضك وأرتعب من إغضابك، ما عدت صغيرة يا أبتِ، أمسيت عجوزًا وأمًا لطفلٍ مشاكس تخطى الثمانين بأربعة أعوام .

- طيب نستنى نشوف الدكتور بالليل، ونعرف رأيه .

تترك طعامك وتحمد الرب على نعمته، وتصلب ساعدك فوق جفونك المرتجفة من فرط محاولاتك النظر صوبي، وترتسم حول فمك استدارات التململ، لتستقر على الخنوع، وقلة الحيلة.

***

في بلادة استنكرتها عليك، وظللت أعواماً كثيرة أبحث عن إجابة، لِمَ تقبَّل أبي أن يلطمه ذلك الشرطي؟ لِمَ لمْ يثُر ويلقنه درساً؟! من يكون هذا القروي المنتفخ حتى يسب ويضرب "بطل العبور"، كنت أريد انتزاع أحشائه العفنة المتكورة، كنت أريد ركلك يا أبي؛ حتى تستفيق، ربما كنت غير واعٍ، أو نائمًا، ومن

المحتمل أنك لست هنا، مسافر مع الزمن؟ كيف احتملت فظاعة ألفاظه وسبابه الجارحة لك وأمي، عانيت كثيراً من ردك الموجع لي.

- يضربني أنا مش مهم، المهم الست بتاعتي .

وماهوالمهم أبتاه في رأيك؟أن أقف على عتبات المخفر، أشاهدك تُلعن وتُصفع، وأنت لا تحرك ساكناً، تتأرجح مع كل صفعة وتستعيد اتزانك وكأن ما حدث لم يكن، ويعتلي وجهك شعور بلادة لم أعِ للآن مغزاه.

***

حتى في رضوخك للموت بعد وجبتك الأخيرة، كانت تحفك البلادة، لم أغفرها لك أيضاً، لأنك لم تقاوم ولم ترد عنك الموت وتنازعه، أوتناوره، أو تحتال عليه، أسلمت له واستقمت تتلقى صفعتك منه، في بلادة، البلادة التي اعتلتني حين أقنعتني عن طيب يأس أن أرتدي ذاك المشد ليباعد بين صدغيَ فأبدو باسمة ضحوكة في إطار بلاهة فاغرة الفاه.

ترتديني بزة المهرج..

سقط المشد أبتاه، وظللت على بلاهتي، أضحك من حالي، عليها، ومعها، فلا الآخرون استدلوا على وقت نحيبي ولا واتتهم شجاعة تربيت روحي، ولا أنقذت ما تبقى منها لأني أفتقرتُ أيضاً للتمييز.

مثلي، مثل الآخرين .

ارتديت ثوب الصلابة والجلد، ترقبني بحدقة المتململ من الرقاد القلق على طفلته الناهزة في الخمسين، في ثوب الطفولة الخشنة ما زلت تراها هكذا، أنا أيضاً توجستك، وأطللت عليك بعينٍ زجاجية صلبة أورثتني إياها، وبلادة ابنة يُنتزع أبوها منها، ولا تفعل سوى حمل حبات الدواء، تنهر، وتهادن ،وتواري خلفها شلال دموع ورعب

من اليتم، طفلة مصعوقة من الوحدة والظلمة والألم وقلة الحيلة.

الآن، هل انضممت لرفاق السلاح والثكنة، وقبضت على حقك المسلوب من آمر مصنع الأسمنت؟

هل عوضت عن سنوات الاغتراب تحت لهيب أصحاب العمائم والدشداشة؟

هل رددت صفعة الشرطي الآن وبصقت في وجهه؟

هل سامحتنى؟

ورفعت رأسك ناحيتي وصوبت ناظريك جيداً إليّ؟

هل تفاخرت بي في الآخرة؟

هل أمسكت بكتابى الأول وأشرت إلى إهدائي إياه لك، كأول مرة عندما قرأته وبكيت؟

هل ما زلت تتألم؟

ووجهك يعتليه ذلك التعبير عن قلة الحيلة؟

٦ - يحدث في الليل

ذات ليلة أويت إلى فراشي، وكعادة المساء، وعادة الأسرة "تلفظ دفء أجسادنا" لتدخلنا عاصفة حنين لزمن ولىَ، وأشخاص مروا بنا.

لا أعلم لم استحضرت وجهه الآن، حين منحت رأسي للوسادة، وحاولت الاستناد على جهة وفشلت، ربما ذكرني ذلك بموقفي تجاهه حين استمالت أمي رأسي، وسكبت في أذني جعبة من الأسباب التي بموجبها لا يصح، ولا تستقيم الأمور في كنفه، لا أنكر أني خنعت لها قانعة بحزمة أسبابها، لكن لأنني لم أجد القناعة الكافية به كإنسان، وكرجل يصلح لاحتوائى وليس مما أتت أمي على ذكره من تحاشي ما يمكن أن ألاقيه معه فيما بعد، نسبة لجذوره الفلسطينية، الشاب كان يحبني بالفعل، وتقدم لخطبتي، رغم أنه ما زال يدرس، ورغم اعتراض أبيه، كان أول رجل أرفق يدي في معصمه، هو أول من ألقى على مسامعي الكلمة السحرية (باحبك)، كان سبباً لوخز ضمير "مستتر" واهن، واااهن، حتى الاختفاء، قصة معتادة، فتاة صغيرة دون السادسة عشر تفتتن بشاب وسيم يسلكان مسارًا واحدًا للوصول إلى مكان الدراسة، فيتجاذبان أطراف الحديث ويتعارفان، فيتلاطفان، وتنشأ بينهما رابطة "يخال" لكل منهما أنها الحب الأبدي.

أتذكر وجهه وهو يغادر منزلنا، بعد أن أصرت أمي أن يسترد سواره وخاتمه من يدي التي امتثلت لأمي تنزعهما عنها لتودعهما كفه المرتعشة، وجملته الوحيدة العالقة بأذني للآن، "هافضل أحبك طول عمري"، تذكرت الآن لم؟ ومن يظل ثابتًا على قناعاته بعض

الوقت، فما بالك بالحب؟

ولزمن ليس باليسير حاولت نفي مسؤوليتي في أن أكون سبباً لتعاسته أو تحطيمه، ورحت أؤكد لحالي أنه حتماً عشق، وتزوج وأنجب وتخلى عن قسمه وعهده الرومانتيكي، ونسي وجهي، وسواره، وخاتمه، وجفت دموعه، هممت بالبحث عنه عبر الإنترنت، وكتبت اسمه الأول "نبيل" وتوقفت .

صُدمت..

لأني لم أعد أذكر سواه فقط، يا إلهي هل نسيت؟

هل سقط من ذاكرتي اسمه الثلاثي لأبيه وجده، هل كل ما علق في بوتقة ذاكرتي الكرتونية فقط "وجهه الوسيم"، وهو ملتاع، واسمه؟

ربما هذا يعني أنه اجتاز وعبر ألمه في سلام دون أن يتداعى، ومن الممكن أيضاً لي أن أنسى ما أمر به ليلاً، وأنسى أن هذا الفراش الذى كان يوماً أداة توغر فيّ كنصل سكين يلهبني، وأنه لم يكن من اليسير أن أهنأ بليلة كاملة من النوم دون ركلٍ، دون لكزٍ ، أو تنالني ضربة مباغتة من حيث لا أحتسب، فأتزحزح حتى ينحسر جسدي على أقصى جهة، فأركن ليغلبني النعاس ألماً، فأفزع على صفعة جديدة، ويستمر الليل على هذا المنوال حتى يستقر الحال أسفل الفراش، أرتكن إلى وسادة، أو ألتحف طرف ملاءة وأفترش سجادة.

والآن بعد أن أمسى الفراش لي وحدي، لا يباغتني النوم دون أن أمر بمعبر الأسى ليومٍ كامل أحاول دفنه في وسادتي، فتلفظه، ويجتر معه رفقته من الحاضر، ويستعين بالماضي فيرمي بمخزون جعبته الراكدة، نعم تغيرت طقوس الأرق وأداة الإيلام، واستبدلت بسياطٍ جديدة وهي الدموع .

حتى تنفد كل تداعيات البكاء وينفد أيضاً مخزونها، بدءاً مما جابهته صغيرة، حتى لما لم أتداركه كبيرة، وصولاً لما جنيته الليلة، وكل ليلة تحفل بالجديد لي ولغيرى أيضاً، فلم تسقط الأشياء الجميلة القليلة، ويعلق ويتيبس بذاكرتنا "الأسى" فقط؟!

٧ - أمل

عرفتها "أمل" اسماً وفعلاً بيننا، كانت تلفها هالة من الغموض حول ما تفعل، وما تتفوه به من ترهات كل صباح، كانت تنهض بجسدٍ متثاقل يحوي العديد من الثنيات المتراخية، وتجاعيد موغرة، ورأسًا تعلوها بقايا خصلات مهوشة فضية، تجرجر قدمين متثاقلتين يتناوبان عبء ثقلها في مدٍ وجزر بين جنبات المنزل الناهز في الثمانين. تحدق فى الضوء المتسلل عبر زجاج النافذة برهةً، مستسلمة لفعلة الصباح المباغتة، يلفها الوجوم، وتكتنفها الحيرة، تفكر وتتساءل، ثم في صوتٍ يستجدي الحماسة:

- ما اليوم؟ لعله الأحد، موعد قدومه؟ اليوم؟

إذًا عليّ أن أتأهب وأستعد لاستقباله.

تعبر الصالة الواسعة بين قطع الصالون العتيق بخطوات مترنحة، تتمايل وتعمد إلى طلب العون بالاستقامة من أثاثها الطاعن في الشيخوخة، تطوي المسافات وتجتاز الغرف حتى تبلغ المطبخ.

تمضى وقتا غير قصير بين أواني الطهو، تطرق إليهم برهة، وتتحسس أكواب القهوة، وتغلق باب الثلاجة بعد أن يعييها البحث عن غرضها الذي تناسته، وتعود للموقد المتوهج تخمد شعلته أسفل إناءٍ فرغ وجف من مائه، وأصدر أزيزاً صاخ إلى سمعها فلبت نداءه، وهي بائسة منهزمة تتنهد، تسترجع ذكرى ولائم أقامتها...

- : آهٍ كم من موائد حملتُ مهام إعمارها وحدي، تضن الآن عليّ وتأبى أن تمنحني بعض رحيق مآدب الماضي .

تسخر مني الآنية .

ويمكر لهب الموقد، تلقي الخزائن إليّ بفتات خبزٍ، وجرعة حليب لا تفي بجوع هرة .

يرغمنني على الاستسلام، وأن أعود لثكنات انتظاري أجر أذناب الخيبة دون وليمة تليق برجلي العائد .

لن أجثو، لن آبه لمراسم عشاء بالية، سأبتاع عشاءً دافئاً، وحلوى تليق بعودته، وسأحتفل معه وأتزين له، سأركلك بأقدامي، وألقي بآنيتك البالية الصدئة، هو لا يرغب في طعام، نعم، يخبرني بأنه يقتات من شفاهي، ويثمل من عينيّ، وسنسهر حتى خيوط الفجر الأولى نؤانسه.

تصل لمرآة تتوسط الردهة وتتحسس تغضنات بشرتها في انكسار وخزي

: أوه، وكيف لي الآن أن أصلح ما أفسده الدهر، وكيف لمساحيق الأفاقين المهرة أن تخفي تلك الأخاديد الغائرة؟ كيف ألقاه الآن؟

دون مأدبة تليق بعودته، ودون وجهه الذي يلتهم منه للرحلة القادمة، لن أحفل، ولن أخبره عن خذلاني، هو دوماً يخبرني عن دفء روحي، وعناقي الذي يكفيه من الكون، سأحتفل بعودته إليَّ مثل كل عام، فقط هو يكفيني دون الأشياء الأخرى.

انحدرت الشمس بتكاسل، شيئاً فشيئاً بهت وهجها وغامت، تفترش الأرض بجسدها الواهن، وثيابها التي وضعتها على جسدها كيفما اتفق، حطم صوت الهاتف سكون الغرفة التي امتلأت

بثيابٍ وأحذية متناثرة وزجاجات فارغة، لم يتوقف رنين الهاتف، امتدت يدها تقبض بوهن على السماعة، انبعث صوت ابنتها عبره :

- أمي استفيقي، أنا في الطريق إليكِ، اليوم هو الذكرى السنوية.

زحفت يدها لتعود بالهاتف، وتعبث بين الزجاجات عن رشفة أمل!

تعاريج الروح

فى بعض الأحيان يجب عليك ألا تقاوم، تقبل هزائمك وخسائرك بنفسٍ راضية، عندما يتعلق الأمر بالقدرية "خاصة"، وحين يعلق بذهنك أنك مضطهد، ولم تنل مقدارك الحق فى الميزان..لا تتذمر فبقية الأمر فى ماعونٍ آخر، يأتى فى حينه، وفى زِنَّة يكمل بها القسطاس، ويا حبذا لو كنت من المقرين بأمرك، وأقريت وصوله، أو من القانعين صبراً،ولزمت قدرك !

ما أطل به على الآخرين..وجه القناعة، والرضا، حتى أن القطرات التى تتساقط وتسترعى انتباه المارة هى محض ترفٍ فى المشاعر، لا تبالى لأمرها وأنا بدورى لن أخلع عنى وجه البلاهة، وسأغض الطرف عن تماهيك بالسعادة..حد البلل لأردية المساء، يا رفيق المزحة المعادة إن لم تسمع جيداً نقرات روحى على زجاجك، لن أراك من غبش وضباب زجاجك!

يا رفيق..من اعتاد أن يعُب قلمه من مداد روحه، وأن يكون طبشور لوحة من ملح دموعه ؛ لن تكون ممحاته من الرياح

١- يوسف فى الجُب

تلوَّح دوماً لى..فى استهلالك علىَّ وفى نزوحك عنى، على الدوام، فى الرؤى، فى صورتك التى تعانى الوحدة، على أقصى جدار فى ذاكرتى، كزاوية حادة يبست على عظامك، كتعريجة أبت ألا تزول وتستعيد قامتك سيرتها الأولى، حين لم يتيسر لى رؤيتها رؤى العين.. سردت لى من مآثرها الحكايا،ورويت عنها ما جعلك تستنهضها من جُب الخشوع الجبرى الذى ألقت بك فيه مهنتك الخشنة.

ما الذى جعلك مصلوباً أعلى درجاتها؟

تركع وتنحنى لتتبتل على زاوياها الرخامية بيديك وأزميلك القزم، تتحسس فى انكفاءة مدى ملاستها، وتجتث المزيد من الشراذم الناتئة أعلى مسامها، أراك دوماً بطرف عينيك ترمقنى، كيلا أبتعد وإن تماديت فى فضولى لاكتشاف الجوار..تحدجنى بنظرة ثابتة، ثم تستجمع نبرتك المتحشرجة لتقطع تمادى خطواتى..

- يا بربرة..أقفى جمبى.

أنتقى درجة قريبة أنهيت تشذيبها، أستند بكاحلى على من توليها العمل فأعبث بشعرك الفضى الهارب من على جبهتك فى رخاوة نقلتها لها عضلاتك المنسحبة من مضمار المقاومة، يضىء وجهك بابتسامة مطهمة بالسخرية..

- ده كان زى سلوك الحرير وأصفر وعينيا خضرة .

أنت جميل بالفعل..بالغاية بالصورة..بالقلب ".

أفحص هيئتك المنحنية، أثقب شذرات الهواء بينى وبينك، أغمض عينى على صورتك يا يوسف، يا يوسف لطالما كانت أمنيتى فى رجلٌ مثلك، يجتث من عمرى باقات الألم المهداة، ويشذب شظايا الزمن من ذاكرتى.

كنت أستنكر أن تحصل على مثلك تلك العجوز المتشنجة، قاسية القلب والملامح، كيف يا يوسف تحتمل رفقتها، وتهاب وجودها، كيف تشتاقها حين ارتحلت لتعتمر، كيف بكيت عليها حين لاحت صورتها أمامك على التلفاز فى عرفات؟

- دى عشرة عمرى..سترى وغطايا، وهى اللى خلفت لى الرجالة، وخلفت أمك اللى جابتك يا بت الكلب.

إنها قاسية يا يوسف، لم تنل من طيبتك وشمائلك الحلوة أى نصيب، أتذكر حين أمرتنى أن أشترى "الجاز" وتناثر على جسدى من خفته فى الإناء، وجسدى الصغير تحمم به، ومن فرط رعبى منها، جلست على طوار الأسفلت أنتظرك حتى تآكل جلدى، لم أعِ كيف كسرت زاوية ظهرك وانحنيت تلتقطنى، حين لاذ وجهى بصدرك، سمعت طقطقة عظامك وأنت مطبق الفم على ألمك.. لم أعِ بعدها إلا وأنا فى فراشك تلقمنى قطع الباستيلا الخضراء بحبيبات السكر وطعم النعناع القوى يلسع حلقى فتلمع عيناى بدموع الشكوى من الجميع، فتربت بحب وحرص على جزء لم يسقط عنه الجلد وأُسقط فى قبلاتك الصغيرة وتغدقنى رائحة المنتول القوية من معجون حلاقتك وحلقى المدغدغ بالسكر.

يوسف..حين مرضت لم تكن تأتيك الغفوة التى كنت ترتجيها إلا حين أقطن فى زاويتك، وأداعب خصلاتك الفضية..أبحث عن

شعرات سمراء..فلا أجد،كانت لعبتنا الجميلة، تترك أناملى تقتل رأسك بحثاً عن السواد المرتحل، طمعاً فى مكافأة نقدية.."تعريفة " لأحصل على التفاح الأخضر المغطى بالعسل، لأقضم العسل المكرمل من على حافتها، وأمنحك البقية خلسة، مع سيجارتين "فرط " تدخنهما فى الخفاء ؛لأنك ممنوع من معاقرة الدخان.

يوسف..دعنى أعترف لك بأنى حين غفوت فى صدرك كما اعتدت، وغلبنى النعاس استفقت على صوت صدرك الذى كان ينازع خلجات لم أعيها، وجَبُنت أن أفتح عينى حين دخلت زوجتك، تظاهرت بالنوم، فحاولت زحزحتى عن زاويتك التى تصلبت على جسدى الهزيل فلم تفلح خشية إيقاظى ؛كى لا أعِ ما يحدث.

تظاهرت يا يوسف بالنوم، كما تظاهرت أنت بالقوة حين رفعتنى عن طوار الشارع .

كنت أسترق السمع لصدرك فلم يأتنى بشىء، لا حشرجة ولا سعال..لا حركة بالمرة، أنا أيضاً لم أتحرك وأصابنى التيبس مثل ظهرك البائس، لاذ ظهرى بالخواء وتقوست داخل صدرك الخامد.

حين انتزعتنى أمى من بينك رفعت يدك المنبسطة على ظهرى، ووضعت وسادة بدلاً عنى .

أنا تظاهرت بالنوم تماماً..كما تظاهرت أنت بالقامة الممدودة باستقامة .

تظاهرت يا يوسف بالجهل بما يحدث..حين تظاهرت أنت بالتواجد وأنت مرتحل .

تظاهرت يا يوسف بالصمود حين ألقوا بك فى جُب..وتظاهرت أنت بالتدجين حين منحك الرب قوة لتتمرد .

أنت الآن فى الجُب يا يوسف لا تحتاج لظهرك مستقيما، ولا لسجائرك الخفية، ولا يتطلب الأمر منك تطويع درجات الغير..من هنا يا يوسف أكتب إليك بأنى أشتاقك ولم أرتو منك كما ينبغي يا جدى الحبيب ، من هنا ، من داخل جُب الحياة .

٢- أما بعد..

أما بعد، ماذا بعد؟

لا أعلم بنيتي لمَ أكتب إليكِ الآن؟ ولمَ أخط تلك الكلمات وفي الإمكان محادثتك عبر أية شاشة من منجزات العصر التقني؟

ربما تخذلني الكلمات فلا تخرج عن طور "خلجاتٍ" أزهق بها ما اعتمل بصدري، ربما أخشى صداهُ عليكِ، أن يروعكِ افتراض فقدكِ لي بين الفينة والأخرى، وبيننا فواصل جغرافية، وزمنية تحجب ضمك لي وربتك لهواجسي كي تخمد.

أنا الأم المتجهمة الصلبة تسرد لكِ تضاريس فزاعتها الجديدة، التي مرقت في أحلامها المتسربة ما بين عشية العام السادس والأربعين، وبين صبيحة عامك الثلاثين، لم أزل أراكِ طفلتي الجميلة ذات السبعة أعوام، بأسنانٍ أماميةٍ مفقودة، وبجديلةٍ قصيرة تتأرجح بين أحد كتفيكِ، تجرش حبات العنب الأخضر وتتلذذ بلذعته، وتضحك ملء روحها الرشيقة على تعبير امتعاضي من غرابة ذائقتها، واقشعرار بدني من لذوعة تتسرب إلى حلقي وهي التي تمضغ (حُصرم) الحبات المنتقاة من العنقود.

أنا لا أرى تلك المختالة بقامتها، والمفتتن بها شباب الحي كافة، أنوثتك معطلة لديَّ، وانعكاس صورتك في روحي لا يتعدى فتاة ضئيلة الحجم تمسك بتلابيب ردائي وتبكي، وتقضم من شطيرة أعددتها صباحاً بمربى المشمش التي تهواها، ثم تقضم ثانية

وتشكو فتية أشرارًا اجتثوا من بين أصابعها الصغيرة ورقة من فئة "الخمسين قرشاً"، وتطلب مني إذناً شفهياً بالاقتصاص منهم، وأنا التي أمرتها بعدم التنمر بهم، عليَّ الاعتراف بأني أخطأت حيال ذلك الأمر. عليَّ الاعتراف بعدة أمور، لن تعينني شجاعتي المنفلتة مني الآن أن أجابهك بها سوى على الورق هنا.

سامحيني، نعم سامحيني إن لم أكن تلك الأم التي رغبتِ أن تشُبي في كنفها، كنت طفلةً وأنجبت طفلةً، سامحيني لأني يوماً ما لم أتخلَ عن صلابتي معكِ، وأصررت على تفادي استعطافك حين أطللت عليَّ مستجدية عدة مرات، حين أخفقتِ في تحصيل الدرجات، وحين تلفظتِ بكلماتٍ مكروهة، وحين سرقتِ من أخيكِ حلواه، وحين عاركتِ الفتيات و...و.. و...

ولأنني أشحتُ بوجهي إصراراً على عقابك، ولم أمنحكِ عناقاً طويلاً، ولأني أصبتك بعصا وكنت أرغب كثيراً أن تخطئ الهدف بعيداً عن مرماكِ .

اغفري لي الأوقات التي استقطعتها من أجل أشياءٍ أخرى لست في نطاقها، اغفري رضوخي لفراقك، بزعم أشياءٍ عدة لم أستسغها لكنني مررتها في جوفي بقنينة أسبابٍ لاذعة.

اغفري ملامتي لأخطائك "صغيرةً"، ونزقك "كبيرةً"، اغفري تعنيفي لكِ عن قضم الحامض، وامتعاضي من صوت طقطقة عظامك، وأصابعك النحيلة، اغفري لي كل موسم للفراولة لم أقتنِ لك فيه سلةً كبيرة ترفلين بها كما تمنيتِ، تأكلين منها وتقذفين التالف على أقرانك، اغفري تدليلي المفرط لطفليكِ.

اغفري إطالتي عليكِ في رسالتي، واعلمي أني رغبتُ أكثر منكِ في

احتضانك وضمك لي، وكنت أود أن أمنحك أكثر من محبتي، ووقتي، وطاقتي، وقبلاتي، وأني لم أقوَ على استخدام الجهامة والصلابة والتعنيف مع أبنائك، لأني رغبت في التعويض عنك بصورة أخرى، ربما أخطأت في إيصال الرسالة، ربما تصدعت مزاعمي حين وجدتك صورة مني، وعارضت تكرار أخطائي، لكني بالتأكيد "أحبكِ"، وأنتِ تدركين ذلك الآن، وأتلمسه في عناقك لهم، وفي شطيرة الصباح، وكوب الحليب، وحبات الفراولة التي تزيلين أقماعها، وتعاودين غسلها مراراً، وتمنحينها لهم بقدرٍ متساوٍ مع حبات الفاكهة الأخرى.

يا حبة الفراولة اليانعة الأولى في حديقتي، وزهرة الليلك في باحة روحي، وعنقود صباي الأخضر، أختصر شوقي، وأسفي، ودموعي في رسالتي.

أما بعد بنيتي، "أحبك".

٣- طريق

كلما مررت من تلك الطريق، أتفحص حال الوحدات السكنية المهجورة التي غمرها الغبار الرصاصي، فأحال لون جدرانها إلى تموهات من الفحمي برقعٍ كبيرة من الرمادى، الطريق السريعة التي استحدثت اختصاراً للمسافات عبر مرورها بمحيط الشركات الأربع الكبيرة، والمحاصرة لتلك الرقعة هناك، قرابة الثلاثين عاماً وأكثر منذ ارتحلنا منها طلباً لشهيقٍ نقي، وأملاً في زفيرٍ خالٍ من الكادموبوم، أمسى المرور عليها كل عشية وصباح "لكزة" قوية تترك أثرها بالوجدان، قبل الذاكرة، على يمين الطريق يمتثل ما تبقى من هيكل مساكن شركة الأسمنت، التي كنا نتطلع إليها في حسرة؛ لأننا لم يصبنا الدور في حيازة وحدة فاخرة منها، تحوي حماماً كبيراً ببانيو، وثلاث حجرات كبيرة "يجري فيها الخيل"، وبلكونة تكشف جزءاً من شاطىء المكس "وهواها يرد الروح"، تلك كانت مقولات أمي حين تمرجيئة وذهاباً عبر ذلك الممشى المؤدي إلى منزلنا، عبر الأسوار التي تعلوها أسلاك شائكة؛ لأن -والمقولة تعود لها-: "كل شيله يشيله".

ربما كانت تعني رقي القاطنين، وانحدار الدالفين في أغوار الحارة المطوية خلف المصنع، ثم تتراجع وتعزي نفسها بتلك الجملة وهي تقبّل ظهر وباطن يدها :

."ونحمد المولى على إننا قرصنا الجوع وربطنا على بطوننا علشان نبني في ملكنا، غيرنا خلص عقده مع الشركة واترمى في الشارع".

على يسار الطريق كانت تصطف وحدات أخرى سكنية، خاصة بموظفي قطاع الكهرباء والمحولات، والتي آلت لذات الحال، عدا أنها ما زالت للآن تغص بكثير من الأسر، والوجوه التي هرمت.

لا أدعي نسياناً أتمناه كلما مررت، وأنا داخل عربة "الميكروباص" أتفحصهم جيداً، وبإمعان لا يخلو من الرهبة بأن أصطدم بوجه أحدهم، أو أن يتعرف عليَّ أحد من بين القابعين الذين يرتسم على وجوههم حال التأسي، أو دهشة تطلع لتلك البؤرة من الأرض الموبوءة التي حوصرت بنكبة لم يستطع أحد فك أسرها، شركة الملح، والأسمنت والبتروجاس، والبترول، والبتروكيماويات، وما استحدث عليها لاحقاً من الفروع، وبينهم رقعة أرض أطلق عليها آنفاً، قبيل عهد التلوث والحصار الصناعي ذاك، "وادى القمر".

شهدت تلك الطريق مآثر كثيرة لي، ربما هي الوحيدة التي أجد بها المرح والمتعة، وقت اصطياد الريتسا من بين الصخور على البحر، وجمع الكابوريا الصغيرة الوليدة والتهامها نيئة، أول لقاء مدبر مع الولد "الفارع" الذي لم أعد أتذكر اسمه وضاعت ملامحه مني، "التختة الأخيرة"، "لبس الألعاب"، "خطابات الغرام"، صديقاتي بوجوههن البكر وبراءتهن، وملامحهن الطازجة المنحوتة بذاكرتي.

كن يتجمعن أسفل منزلي صباحاً؛ لنستكمل بقية الجولة في إيقاظهن، مروراً ببيت "هالة" التي يعمل أبوها بشركة الملح، حتى "مها" بمساكن الكهرباء، كنت متوسطة الطول بينهن، و"هالة" فارعة بتضاريس لا تمت بصلة لطالبة بالإعدادي، حتى أننا كنا نسخر منها ونسألها عن الأولاد أين هم؟ وكيف حال الرجل معك؟

كانت بوجه أبيض يحمل ملامح القرويات المتشحات دوماً بوشاح

صباحاً خشية أن تصاب بنزلة برد جراء غسل وجهها الذي تطلق عليه "التشطيف"، فنسخر ونسألها لم تستخدم ماء الترعة البارد؟

كانت "مها" تتوسطنا، وهي تتأبط ذراعينا، نسخر من ذراعها القصيرة التي تدفعها أسفل إبطينا، ندعوها لأن تجنح يسارنا، أو يميننا؛ فهي الأقصر قامةً، تضحك معنا على طولها الذي لم يبلغ حد التقزم، أو ينحو إلى الطبيعي، والمقبول من القصر، تتشبث أكثر بنا، تخبرنا إنها تواري أصابعها في طيات رسغينا؛ فهي مدعاة سخرية لأن إبهامها جد قصير، لدرجة أنه يحوي "عقلة" واحدة من العظام، ودوماً تلازمها "لازمة" طيه بالأربع الأخريات، خصلات شعرها المتموج كانت تتهادى فيما بيننا، تحمل وجهاً حسدتها كثيراً عليه، وأحببته أكثر بخالها الذي يتوسط خدها الأيسر، وعينيها ذات الرموش الكثيفة، وجهاً بريئاً مميزاً يمكن أن ينهمر بدموع الأسى وسط الهزل والنكات، لم أنسَ يوماً وجهها الدافق حباً وسلاماً للجميع، ورقة دون افتعال أو ادعاء، لدرجة يمكن معها أن تتوقع أنها إن تعثرت بحجر، في طريقها؛ أن تنحني عليه تقبله، وتعتذر له عن رعونتها، وشطحة قدميها.

لازمتني صورتها فى كل مرة تحاول إحداهن خرق عزلتي والتودد إليَّ بدعوى إبرام عقد صداقة، فأشرد فى هيئتها التي طبعت بذاكرتي المغبرة، وأتمنى أن تجمعني بها صدفة متسربة من قائمة الأماني الضالة.

أنا على ذات الطريق الآن؛ ربما لذلك؛ اجتررت تلك الذكرى البعيدة.

ركون السائق لإصلاح الإطار المثقوب ربما ليس من قبيل المصادفة، لعنه الطريق والأسفلت ويوم ولدته أمه، والحمقى على الطريق والمترجلون من العربة، وأنا في خضم كل ذلك، لا أعبأ بشتائم ولعنات السائق، بل أنا داخل عالمي على مسافة

بعيدة للغاية من الزمن، وأقرب إلى حد الالتصاق في المكان، وجلة، لا أجرؤ على تخطي تلك العتبة الفارقة للحضور.

- يا الله...، ها هي تلك؟

أراها تخطو في صحبة سيدة تحاول اللحاق بها بصعوبة، وهي كالفراشة المنطلقة من بين صفحات كتاب الحكايا العتيق، تخطو في اتجاه تجمعنا، يا لرب السماء عندما يستجيب، إنها بالفعل، تلك القامة الرشيقة القصيرة للغاية، ترتدي بنطالاً من الجينز الأزرق، إنها هي بذات شعرها المتموج، إنها هي تلك الفتاة الخفيفة التي تثقل كاهلها حقيبة متخمة بالابتسام والمودة تلقيها على العابرين كهبة لا ترد ولا تمحي آثارها أبداً.

أرتجف، لا أعلم لمَ، عليَّ أن أتقدم ذات مرة، وألحق بما فاتني، عليَّ النفاذ إلى عالمى المفقود والتقاطه من بين غيمات الحاضر الرمادية، فليكن :

- لو سمحتي.

- أيوه، تحت أمرك.

- هو مش إنتِ "مها عبد الله"؟

تبتسم في خجل وتسقط رأسها الصغير نحو الأرض، وتعاود النظر:

- حضرتك تقصدي "مها عبد الله الرشيدي"؟

بفرح وتهلل :

- أيوه بالظبط. إنتِ صح ؟

تبتسم مرة أخرى، تضوي لمعة عينيها أكثر، ويظهر الأثر الخفي للخال الذي طُمس مع ألوان الحمرة فى الخد الأيمن :

- هو بس حضرتك تقصدى مامتي، مش أنا .

تستدير خلفها لتشير إلى سيدة تميل إلى الامتلاء، قصيرة القامة، وتضع وشاحاً يتهدل حتى أسفل صدرها الممتلىء، وتنتعل حذاءً من الشمواه المتآكل ذي الكعب المسطح، وتحدق فينا من خلف عدستين مغبرتين بالذرات التي تملأ الجو، والأبنية، والشخوص، وتمسك بيدها اليمنى كيس نقودٍ جلدي أسود، وهاتفًا قديم الطراز، والأخرى تطويها محرمة ورقية تخفي إبهامها داخلها.

تقترب أكثر، وترفع رأسها نحوي، تحملق وأنا ذاهلة مأخوذة، تمسح عدستها بمحرمتها الساترة لإبهامها القصير، وتضعها مرة أخرى فوق أنفها، وتزجرها لأعلى، وتعيد تموضعها على أذنيها، وتعاود التدقيق في وجهي مشدوهة, متشككة, تعيد الكرة.

أردت إخراجي، وإخراجها من تلك اللُجة الزمنية التي علقنا بها:

- أيوه، أنا .

استدعينا ذكرى مطموسة الملامح، تعارفنا، احتضنتها دون انتظاررٍ، تعانقنا، بكت، نعم بكت واعتذرت كالسابق، كما عهدتها، واعتذرت أيضاً لها لأنها تعثرت بي وأنا في طريقها، تواعدنا على لقاءٍ قريب وتبادلنا أرقام الهواتف، ربما يحدث، وربما لا، فالبعض لا يحبذ فتح الملفات المغلقة، مضت بعد أن أُصلح الإطار، وسار بنا الطريق، أنا ألوح لها وهي تلوح بيدٍ، وتمسح دمعاتها بالأخرى بكامل أصابعها دون مواراة، دون خجل من دموعها، نظرت في مرآة العربة التي تجاورني على يميني، أطلْت النظر للصورة التي تبدت لي، لامرأة

في نهاية عقدها الرابع منتفخة الأوداج من أثر معاقرتها "الكورتيزون" زمناً، ترتج مع مطبات الطريق التي تعلو وتنخفض في مسارها، كان الأجدى أن أعرف هوية تلك المرأة التي تطل عليَّ الآن من المرآة الجانبية، وتتململ كلما رفعت ناظريّ نحوها .

طوال الطريق، نصَبت عينيَّ صوب الأمام، حيث تسير إطارات العربة قدماً وتأكل مساحات من الأسفلت الأسود، وتجتر مساحة من الزمن، وتلتهم كيلوات أخرى من الطريق .

٤ - مولانا

يفتح عينيه فى زاوية..تضطرب أهدابها كثيراً لتسفر عن ابيضاض غير مستقر، تعاود الإغلاق وتتيبس على متنها، ما يتحرك بطلاقة هما الحاجبان اللذان لم يتوانَ أحدهما فى توضيح الموقف..عما إذا كان استياء فينضمان ويتقاربان، وإن كانت دهشة فيقفزان أعلى ما يستطال من خطوط الجبهة، وإن كان الحال رقيقاً، أو مستعطفاً فيتباعدا فى مرونة وارتخاء، أما عن الرقبة التى تحمل تلك الرأس والوجه فتشعر معها أنها تستقر على اسطوانة مموجة معدنية تسمح بالتفاتة دائرية كاملة، والعودة فى مرونة مرة أخرى لوجهتها الأصلية، يقبع فوق تلك الرأس لفافة من القماش الأبيض منعدم الهوية، رابضٌ فوق غطاء للرأس من الصوف الأحمر القانى..ينسدل فوق كتفيه المكتظين عباءة، انطوت على ما لا يتفق دوماً أسفلها، وما أمكن من حشده.

يحكم طرفى عباءته المنسدلة على كتفيه، يتحسس بتوجس دائم يد مرافقه، الذى هو غالباً من تلاميذه المستضعفين حالاً..مجبولاً على رفقة واصطحاب "مولانا" من البيت إلى الجامع، ومن الجامع إلى المقهى، ومنه لسرادقات العزاء، وليالى "الوهبة"، والتى يطلق عليها "ليلة لله".

مولانا لا يفوت تدخين النرجيلة، ولا حسنة أهل الميت فى تلاوة الربع، ولا "ثريد" ليلة أهل الله، ولا "الثلاث جنيهات" التى يفرضها على ذوينا فى كل صيف..والمسمى (تحفيظ القرآن)، كنت من زمرة الأطفال المزجورين إلى فضل التحفيظ والتجويد فى حلقة مولانا، والعصا لمن عصا.

أحضر حلقات الدرس داخل الجامع، نفترش الحصير البلاستيكى، ونتجمع فى حلقتين..واحدة للبنات، وأخرى للأولاد، وقبيل التجمع نقصد "الميضة " لقضاء حاجتنا ثم الوضوء..لأنه ممنوع التسلل أثناء الدرس لأى عذرٍ كان، كنت ومازلت ممن يتلوون ألماً ولا تواتيها شجاعة نزع السروال خارج المنزل، فى إحدى حلقات الدرس التى طالت على أعتاقنا ومسامعنا هرطقة مولانا فى سرد أمجاده اللغوية وجوائزه فى الحفظ، وإشادة السادة الشيوخ بقدراته الربانية العظمى...تجمدت فيها، وأنا أجلس القرفصاء لأن الحكى طال ومادت بى الأرض لأنى لم أعد أحتمل حبس مياهى أكثر من ذلك، حتى فُضت جلسة مولانا وهشنا بعصاه الآمرة :

- يالا يا ولاد الهرمة...كله على بيته.

انفضوا جميعا من حولى واصطحب مولانا فتاه المختار لبقية الجولة اليومية، تلكأت فى ارتداء حذائى، حتى خلا الجامع فتسربت إلى "الميضة " لأننى لن أحتمل المسافة إلى منزلنا وساق ملتصقة من فرط امتلاء مثانتى .

هرعت متأففة، ومرغمة لقضاء حاجتى، فى تسلل تجاه الخلف..سمعت صوت أنفاس متلاحقة فتوجست، ثم استكنت لحظات فسمعت همهمة خافتة داخلها فتجمدت..ما الأمر؟؟

غادرتنى رغبتى البيولوجية واحتل مكانها الفضول الشائك، الريبة، الخوف من اكتشاف المجهول..

انحنيت لأختلس النظر من ثقب الباب..صعقت حين رأيت وجه الفتى "صبرى " يقطر دمعاته المتلاحقة، وجسده فى انحناء تام..يواجه باب الميضة ويستند عليه فى قنوطٍ بالغ، ويتأوه ألماً..

لم أعِ ما يحدث فى التو، لكن بعد دقائق مرت دهراً علىَّ وأنا مأخوذة، سمعت صوت مولانا يخبر الفتى "صبرى" منذراً ومتوعداً اياه، وأهله بقطع مال الزكاة عنهم ، وأنه سيخبر الصبية والحى بأكمله بأنه:

- أنت "موش راجل" وإنت خلاص طاطيت..فعلى إيه الفضايح ليك ولأهلك؟

حتماً هناك شر وأشرار..لكن الأكثر حتمية أن هناك شياطين تقطن وتتجول بيننا..وجه "صبرى" مازال للآن يمثل لى الظلم بصورته الكاملة، الانتهاك للآدمية، الجبروت الإنسانى .

رحلت أرتعد يومها، وأنا لم أوتَ القدرة الكاملة العقلية لتفسير ما يحدث من الشرور، ونوع الجرم، وماهية المجرم..فقط بعض الصور الذهنية واللفظية لتلك الجريمة، تكون مفهوم مختصر لما حدث دون الخوض فى تفاصيل الأداء...هى مشينة لا محال، "مصيبة" بالقطع.

تحايلت فيما بعد على حضورى الدرس، فكنت أدور حول الجامع لحين انقضائه، وأعود فى جموع العائدين..حتى تخلت أمى عن فكرة حضورى لحاجتها لى برعاية الصغيرة الجديدة، حتى سمعتها ذات "جمعة" تخبر أخى أن يذهب بالصغيرة، ليتفق وينتظر مولانا لحين خروجه من صلاة الجمعة ويلقفه الصغيرة التى تأخرت بالمشى، ويغمر حجرها بالحمص والحلوى والفول السودانى، ويهب مولانا نفحة قبيل الصلاة فى اختلاء كيلا يخجله من قبول الهبة المادية.

فزعت وأصررت على مصاحبة أخى وسط دهشة أمى التى استنكرت علىَّ الذهاب وسط المصلين والرجال، لكننى قلبت الدنيا رأساً على عقب لأصطحبهم..أو لأصطحبه هو..

طالبتنى أمى بتفسير فلم أستجمع شجاعة كافية لسرد ما رأيت، ولم أجد فى مجمع ألفاظى ما يليق بلفظة نابية أطلقها على مولانا..فما كان منى سوى التأتأة، وإصرار غير مبرر ومستحكم..

: هاروح معاه..زفت مولانا ده راجل..لا مش راجل...رايحة معاهم كده كده !

مر اليوم ولم أبرح كتف أخى، وساحة المسجد التى أشرت عليه بالوقوف فيها...تأخرت أختى عاماً آخر فى المشى لثقل وزنها واعوجاج ساقها المتبدى .

استيقظنا ذات مرة على جلبة مدوية وصراخ..

ماذا حدث ..

- : بيقولوا مولانا طلع بتاع عيال !

- : يخرب بيته..ده عيالنا كلهم كانوا عنده.

- : الأعمى المعفن ، كان بيستقوى على العيال الغلبانة.

- يخرب بيته بوظ العيال ، منه لله.

رحل مولانا ....كبر الولاد "صبرى" "عثمان" "على" وغيرهم ممن تجمدت لديهم دموع الخوف، وقضموا ألسنتهم رعباً واستياءً ومرارة، وابتلعوا الحدث داخل ظلام جوفهم...

نبت مولانا آخر.....داخل شعاب حوارينا، ونبتت شجيرات حنظل أخرى..رواها الصمت، ورعاها الخوف .

٥- قاتم وجميل

الأرض أسفلتية ملساء، الظلام مخيم؛ إلا أن الحرارة كانت تلدغ قدمي كلما وطأت الأرض وحاولت الخطو ثانية، لكن لون السواد بالأرض جميل للغاية، قاتم، قاتم جميل وأنيق، مثل بزة سوداء لامعة، يقتنيها وسيمٍ لأجلي، أسمر بعيونٍ بنية، ويحمل باقة من عصفور الجنة السمراء، لم أر الأسمر منها قبلاً ! لكنها رغم قتامتها وانحناء أعناقها إلى الأسفل تبدو، يااااه، تشبهني.

ولمَ أقدامي دون حذاء؟

سأحاول المضي، وسأنسى الفارس والباقة، سأنظر للشجرة، وللأعشاش المندسة بها البومة، أحبها دون الطيور، ولا تنالني رهبة الشؤم منها، أراها جميلة وقاتمة، قاتمة ومتفردة، ذات طابع خاص راقية، وتنحو للوحدة، لها عالمها، لا تظهر إلا حين يخلد الناس لنعاسهم، ويتقزمون داخل أسرتهم، ويتلحفون بالغياب، تخرج لتغني شجنها الجميل، نعيقها غناء ليس إلا، ألا يوجد غناء حزين؟

آهٍ قدمى ثقيلة للغاية، وكأني أجر حمولات لأجساد أخرى ليست لي.

مدة لم تلبث أن تكون بضع ثوانٍ، صوتٌ أجش لسيدة ألمحها تقف على مقدمة رأسي، ترتدي بالطو أبيض، وتحرك في رأسي يمنة ويسرة في محاولة منها لاستفاقتي.

- حمد الله على سلامتك، العملية نجحت، ورجلك هاتقعد في الجبس أربعين يوم .

دوّى في أذني طنين قوي، حركت جسدي قليلاً صعقني ألم قدمي الأسيرة في الجبيرة البيضاء، أغمضت عيني وأنا أبتلع ألمي في آهة قوية، فرأيت ظلاماً براقًا قاتمًا، قاتمًا لكنه جميل .

٦ - ألوان وشعر

في أولى محاولاتي للكتابة أحببت القبض على القلم، وأن يكون طوعي، أخط به ما أحببت قبيل ذهابي لدار الروضة «وردة» بعود أخضر ووريقات على الجانبين، وأن أسوّد الفراغات بين الجذع والساق بالأخضر الشمعي، وأغوص بالأحمر فوق أعلى دوائرها حتى البتلات الصغيرة المنغلقة منها، تلك كراسة الرسم التي أتاني بها أبي، وعلبة الألوان الشمعية الاثني عشر لونًا لي وحدي، كم أتشوق للجلوس في الصفوف الأمامية مع تلك الفتيات جاراتي اللاتي رفضن الانضمام معي للعب «السيجة».

أخي افترق عني بحجرة الأولاد، والمعلمة أشارت عليَّ بالانضمام إلى «صفاء» آخر الصف، هي قميئة ورأسها يعج بالقمل، وأخشى أن تسرق مني ألواني أو تمزق كراستي .

عادت المدرسة واصطحبتني بأشيائي، وقادتني نحو حجرة أخرى ليس بها أطفال سواي، وبعد قليل أتت بأخي الذي انضم إليّ في الفصل الخاوي، عدانا، جلست أنتظر وأنتظر، حتى مرت علينا مدرسة تصطحب والد إحدى الفتيات، وألقوا نظرة فاحصة علينا، وأطل الرجل بعنقه الذي عاد لرأسه بعد الميل علينا يخاطبها.

- كده أحسن ولو تمشيهم كمان هاكون مطمن.

- إحنا بعدناهم عن الولاد لحد ما تيجي أمهم وتاخدهم.

رد الرجل بصوت التوكيد الذي يخرج من الأنف قبل الحنجرة :

- آآه ما هو ولادنا ما يجتمعوش مع ولاد اللي بتسافرو دايرة على حل شعرها !

بعثرت أدواتي أبحث عن ممحاة، فلم أجد، دققت النظر للزهرة فوجدت شوكًا قد نما فوق الساق وتحرشفت الأوراق، ويبست البراعم.

٧ - النملية

أصرت أن أحمل بقايا فتات الخبز إلى خزانة خشبية ذات قوائم بارزة، وضلفتين من شرائح الخشب المغزول المُضفّر، تطلق عليها «نملية».

جدتي «روحية» أم أمي التي تنحدر من سلالة العثمانيين الأشاوس، لا أقوى على مجابهتها، أو الاعتراض على فرمانات أفندم باشا، رغم نشأتها بالجنوب إلا أن عامل الجينات الوراثي، لديها ما زال نشطًا.

جدتي كانت زرقاء العين وشاهقة البياض وشعرها أبيض مجعدًا للغاية، لا تمر به أسنان مشط إلا وتأوّه منها.

.«يا بنت، حطي الجبنة في النملية»، «حطي العيش في النملية، واوعي تنسي تغطي الحلة»، «يا زفت الأطران، حطي السمنة في النملية».

- حاضر، حاضر، لمَ النملية؟

لم أخبركم سابقاً ببقية الخصال، والتي أهمها البخل المجحف.

تؤمن بأن النملية تحفظ الطعام، وتؤمن بأن الطعام مؤمن من الالتهام أو الفساد طالما أغلقت عليه شق ضلفتيها «الشبيكة».

ليلة من تلك الليالي التي كنت في عهدتها، قرصني الجوع، فوقفت أمام النملية حائرة، تراقصت عمدانها، لا أملك اختراقها اكتشفت كشفاً كان كفيلاً بصرع الجدة، وسد مأربها الخشبي الحصين.

- ياستي، النملية مليانة نمل !

١٢٣ - ٨

يزعجنى وميض السيارات المارقة، وضجيج الشارع أقرب لجوقة إنشاد صوفى وسط وشيش البحر، طنين ذبابة قريبة إلى شحمة أذن،ورفيف نحلة مختالة بقوامتها بين السرب..تتأرجح عند الحد الفاصل فى جبهتى .

لا أحتمل الضجيج ولا الزحام..تزيد الحافلات من إرهاقى، تشعرنى دوماً أنى فى بطن ثورٍ هائج يتمخض بى..لايعرف طريقاً لقذفى خارجاً، ولا أتمكن من النفاذ منه «123»، أذكر تلك العربة الضخمة «أتوبيس المعونة «..كارتر.

أبحث عن تلك الأرقام فى واجهة كل ثورٍ يمرق بجوارى، يأخذنى الحنين دائما لتلك الأوقات، لو صادفنى سأستقله على الفور دون احتساب عواقب للدخان الخانق الصادر من شكمانه والمسبب للصداع، أوهزهزاته التى تأتى بعصارة غداء الأسبوع الفائت، لا أعرف سواه.، حين تسلقت وتدافعتنى الأجساد إلى الغور فيه، حين تأبطت رجفتى من ملامسة جسد شابٍ، حين تقيأت رغبتى فى الاعتراض عما يحدث لى ولسواى من المستوحدات، حين لوحت له على الكورنيش وتخطانى..حين دلفت إليه فرحة، حين ترجلت وعيناى تنزان دموعاً، حين قررت عدم العودة، حين لاحت لى اللوحة متباعدة، تومض إلى برسالة مغلقة بوميضٍ متوهج، وكفين باللون البرتقالى يتصافحان،..سخرت من غفلتى عن فضها، هى (١_٢_٣) هى درج الدنيا تصاعدي، وتنازلى، صفعت الخوف، وواجهت التنمر بزئير.

٩ - كشف نظر

لم أعد أحصي عدد مرات التلفنة عبر الخط الهوائي، أردت تلك الجملة التي تربت على روحي وتمنحني صك الأمان «أنا بخير ونازلة قريب»، تختصرين مآل هواجسي، شيء ما ألم ببصري حتماً، أزرار الحاسوب تداخلت، وشاشة التلفاز صورها شاهت، ربما استوجب عليَّ إجراء فحصٍ للنظر، ألوم ظنوني بنيَّتي، وأتواطأ معها في شعورٍ غريب لا يخامره ندم، لا لست أنتِ، هي عدساتي لا شك، ولا شك بأن تلك الصورة بها خلل، رأيتك تطلين عليَّ منها ودمعة قد نبتت على مقلتك، لم أعِ، اخترقت ستر الضوء وتحسست الشاشة ولامست موجاتها، تواترت مساحات الضوء والظل، بعيدةً كنتِ، هي خيالات لا محالة ستزوي حين تجيبين على الهاتف وتخبرينني عن موعد إجازتك، وسأسر إليك بحاجتي لعدساتٍ جديدة، حين تجيبين على الهاتف سأوقن أن فتاة أخرى، يافعة، مريمية الوجه ولامعة العينين، وتملك غرة سوداء، وحقيبة تتأبط الهواء، تشبهك حد التطابق، ولكما نفس الآمال، وتحملان هوية مغتالة بالاغتراب، حين تجيبين على الهاتف سأخبرك جديداً؛ أفضل لسوانا غاليتي.، لا تأتي، ولن أجري فحصاً للنظر !

قوية وصعبة المراس

أنا قوية بما يكفي لقطع حبائل الشك التي تقيدني من رأسي لأخمص قدميّ، فأتيقن تماماً بأني بلهاء !

وصعبة المراس بكل ما أوتيت من عزم؛ كي أجمع شتاتها مرة أخرى، حول رأسي النابه، وصدري المعد لاستقبالك، مما أعي تماماً أني خرقاء !

مباركة، هو ما يدفعني لقضم سويعاتي الممنوحة من الأيام، مباركة؛ كي ألهو في تروس الوقت على أرائك المحطات، وأنا أنتظر أن يشيح الملل بوجهه، وأستدفئ بأدخنة المراجل، وألتحف بقصاصات الجرائد التي تحمل في طياتها ذوقك الهادر في اختيار الحسناوات، وألهو بقصاصات تذاكر رحلاتك الكثيرة، وأفند بين وريقات الذهاب والإياب، وأضيف إليها الغياب، فهل ترى كم أنا جد قوية, وصعبة المراس, ومباركة؟

الفهرس

امرأة التعاريج	
مغادرة	٨
فيلم هندى	١١
ابن حب	١٤
الأبيض الغائم	١٨
الملح	٢١
تلصص	٢٤
مدان	٢٧
عاريج القلب	
وخز	٣٤
سماح	٣٦
الحافلة	٤٠
عواء	٤٤
لأنك أبى	٤٧
يحدث فى الليل	٥٤
أمل	٥٧
تعاريج الروح	
يوسف فى الجُب	٦٤
أما بعد..	٦٨
طريق	٧١

مولانا	٧٧
قاتم وجميل	٨١
ألوان وشمع	٨٣
النملية	٨٥
١٢٣	٨٦
كشف نظر	٨٧
قوية وصعبة المراس	٨٩